ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

تطوان والمجتمع التطواني من خلال رحلة بوطوكي (١٧٦١ - ١٨١٥)

أ.د. مصطفى غطيس
أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّص

كان بوطوكي Jan POTOCKI أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد السلطان العلوي المولى اليزيد (١٧٩١). وتعتبر رحلته إلى تطوان، في شمال المغرب، (من ٢ إلى ٢٠ يوليوز ١٧٩١) من أهم رحلات الأجانب الذين وصفوا هذه الحاضرة وسكانها. فلقد كان الرجل من ذوي الاطلاع الواسع، دقيقًا في ملاحظاته للناس وطبائعهم، وكذا في وصفه الغني للمدينة وأرباضها؛ وأخذ من مناهل العلم أنّى كانت، واطّلع خلال مقامه بالمدينة على كل ما أمكنه الاطلاع عليه من كتب، على اختلاف مشارب أصحابها، يهودًا كانوا أو عربًا... ولقد ترك لنا في رحلته وصفًا دقيقًا لمدينة تطوان ومجتمعها في أواخر القرن الثامن عشر. وهي تشتمل على بعض التفاصيل الهامة التي من شأنها إغناء تاريخ المدينة خاصة، والمغرب عامة. وهذه الرحلة متميزة بالنظر إلى الثقافة الموسوعية لصاحبها الذي كان فذًّا في علمه، ونموذجًا لمثقف عصر الأنوار المتضلع من كل علوم زمانه، وهي العلوم التي تتجلى بين فقرات رحلته، من خلال أسماء مشاهير العلماء ومؤلفاتهم. ويتميز صاحب هذه الرحلة بروح الملاحظة ودقة الوصف. وهذا ما مكّنه من الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين حاضرة تطوان والمغرب من جهة، والمشرق وأوربا من جهة ثانية... وتشتمل الرحلة على وصف دقيق لبعض أبواب المدينة، ومبانيها، ومساجدها، ودروبها، وغِرَسِها الجميلة، وطيورها، وحيوانات أحوازها... كما يحدثنا عن المجتمع التطواني، بوصفه بعض أفراد الخاصّة وبيوتاتهم ونمط عيشهم، وثقافتهم؛ ويصف العامة من خلال ملبسها وسلوكها وبعض ألعابها... ويحدثنا عن وضعية اليهود في المدينة، وبُغض المغاربة الشديد للإسبان... وتبقى هذه الرحلة وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ المغرب عامة، وتاريخ تطوان خاصة، خلال القرن الثامن عشر.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	مارس	٢٠١٨
تاريخ قبول النشر:	٢٨	يونيو	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

المغاربة، النساء، اليهود، الأجانب، الفروسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055409

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى غطيس. "تطوان والمجتمع التطواني من خلال رحلة بوطوكي (١٧٦١-١٨١٥)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٥٢ – ١٧٤.

مُقدِّمَةُ

تعتبر رحلة بوطوكي(Jan POTOCKI)[1] إلى تطوان (من ٢ إلى ٢٠ يوليوز ١٧٩١) من أهم رحلات الأجانب الذين وصفوا هذه الحاضرة وسكانها ؛ وهي تشتمل على بعض التفاصيل الهامة التي من شأنها إغناء تاريخ المدينة خاصة، والمغرب عامة. وهذه الرحلة متميزة بالنظر إلى الثقافة الموسوعية لصاحبها الذي كان فذًّا في علمه، ونموذجًا لمثقف عصر الأنوار المتضلع من كل علوم زمانه، وهي العلوم التي تتجلى بين فقرات رحلته، من خلال أسماء مشاهير العلماء ومؤلفاتهم... فلقد كان الرجل من ذوي الاطلاع الواسع، دقيقًا في ملاحظاته للناس وطبائعهم، وكذا في وصفه الغني للمدينة وأرباضها ووسطها الطبيعي؛ وأخذ من مناهل العلم أنىّ كانت، واطّلع خلال مقامه بالمدينة على كل ما أمكنه الاطلاع عليه من كتب، على اختلاف مشارب أصحابها، يهودًا كانوا أو عربًا... فما هي المعلومات

التي خلفها لنا بوطوكي حول تطوان وأهاليها في أواخر القرن الثامن عشر ؟

وصول بوطوكي إلى تطوان

وصل بوطوكي إلى تطوان بحرًا، يوم السبت ١٧٩١/٧/٢، قادما إليها من جبل طارق، صحبة سيدي التاودي بوهلال الذي حدثه عن تجارة آل بوهلال في السودان، وعن رحلته الحجازية التي نهب البدو كل أمتعته خلالها[٢]. وهذه هي ثالث رحلات بوطوكي إلى إفريقيا[٣]. ولقد استيقظ الرحالة بوطوكي في سفينته وهي تقترب من تطوان، الحاضرة التي تقع، حسب وصفه، على بعد فرسخ من شاطئ البحر المتوسط، في موضع تنفرج فيه جبال سلسلة الريف[٤]، وتكشف عن أودية أكثر اخضرارًا. ويتساءل الكاتب: هل هو بصدد كتابة حكاية رحلته؟ ثم يجيب بالنفي قائلاً إنه يحس وكأنه استسلم لشعور قوي لا يحس به إلا الرحالة. ويضيف بوطوكي: وإذا ما قمت بنشر يوميات رحلتي هاته، فسأكون بعملي هذا قد استسلمت لذلك الشعور. ثم إنني أول أجنبي يزور هذا البلد بصفتي رحالة، وبالتالي فلن تكون هذه الرحلة عديمة الفائدة[٥].

نزل بوطوكي من سفينته عند مصب نهر (مرتيل)[٦] ذي الضفاف الرملية والمكسوة بالخلنج[٧] (bruyères). وترك أمتعته الشخصية الكثيرة بين أيدي رجال ديوانة تطوان الذين يبدون من خلال وصفه أمناء، وإنْ وصف رجال الجمارك عامة، وفي جميع بلدان العالم، بالأعداء الطبيعيين والدائمين للمسافرين[٨]. ومبنى ديوانة تطوان، حسب بوطوكي، يشبه تمامًا مباني الجمارك في الأندلس، ويُعنى به عناية تامة، شأنه شأن حصن مجهز بستة مدافع، وكذا جسر صغير بُني بالحجر بالقرب من مقر الديوانة[٩]. ولقد وصل إلى تطوان محملاً بكتاب التوصية الذي سلّمه إياه محمد بن عثمان[١٠]، "سفير المغرب في إسبانيا"[١١]، حسب بوطوكي الذي أثنى على صاحبه هذا جميل الثناء، وكان يسامره طوال مدة مقامه في مدريد[١٢]. ونموذج بن عثمان، حسب بوطوكي، يكذّب ما زعمه شينيي (M. Chénier) من أن المغاربة لا يعرفون معنى للصداقة[١٣]. ولعل حكم شينيي هذا من الأحكام المسبقة التي يقول بوطوكي بخصوصها: «للأسف، لا يشاهد الرحالة الأجانب عادة إلا من خلال النظارات التي أتوا بها من بلدانهم، ويهملون كليًا الاهتمام بتكييف زجاج هذه النظارات في البلاد التي يذهبون لزيارتها، وهذا ما يفسر مشاهدات خاطئة كثيرة»[١٤]. وبالتالي فبوطوكي ليس من أولئك الذين تجذّر تيار الغرابة في حديثهم عن الآخر ووسطه، ووصفوه في خطابهم ليس كما كان، وإنما كما أرادوا أن يكون[١٥]. كما أنه لم يصدر، في حديثه عن تطوان وأهاليها أحكاما مسبقة أو نعوتًا قدحية تعكس شعورًا ما بالتفوق، كما فعل غيره. ويخلو نص بوطوكي من "أسلوب المفاضلة" الذي نراه حاضرًا بشكل لافت في مؤلفات صاحبه بن عثمان، كلما تعلق الأمر بأناه الثقافية وتعارضها التام مع أنا الآخر وثقافته المسيحية[١٦].

ويطلعنا كتاب توصية بن عثمان على أن بوطوكي هو أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد المولى اليزيد[١٧]. ولقد وافق هذا السلطان على استقباله في سلا بشرط أن تكون بولونيا حليفة الباب العالي؛ وأتاه أمر السلطان بالقدوم عليه يوم السبت ١٧٩١/٧/١٦، وحمل هذا الأمر جِنْوي يسمى فرانتيشكو تشيابي (Francesco Ciapi)، كان بمثابة وزير خارجية المولى اليزيد[١٨].

مقر إقامة بوطوكي في تطوان

توجه بوطوكي يوم وصوله إلى تطوان (١٧٩١/٧/٢) لزيارة قائد المدينة في داره. وكان القائد لما أُخبر بوصول الزائر البولوني إلى الديوانة، بعث إليه بغاله ليُحمل وأمتعته إلى الدار التي خُصّصت لمقامه في تطوان[١٩]. ثم بعث له بعض المؤونة مع شاب قسيم الوجه، رحّب بقدومه ترحيبًا في غاية الظرف. وبعد ذلك استقبل الرحالة في مقر إقامته بعض الزوار، ذكر من بينهم نائب القنصل الإنجليزي، وهو شيخ مغربي "موري" (Maure)، أبيض اللحية، يتكلم الإنجليزية بطلاقة وكأنها لغته الأم. ولقد فضل بوطوكي المقام في دار ترجمانه اليهودي سمويل السرفاتي (Samuel Serfati)، عوض الدار التي خصصها له القائد، ولم يكن هذا الأمر، حسب الرحالة، هيّنًا، لأن هذا الاختيار كان يعني أن بوطوكي يفضل ذوقه على ذوق القائد.

وهكذا أصبح الرحالة يسكن دارًا يشرف سطحها الصغير على السهل والجبال والبحر... وكانت هذه الدار تقع وسط دور أخرى كلها في ملك اليهود[٢٠]، إلا أنه كان يمكن للمرء أن يشاهد من أعلى سطحها الأسطح الأخرى البعيدة، ويبصر عن بعد بسهولة النسوة المسلمات. ويحدثنا بوطوكي عن درجة الحرارة التي سجلها محراره يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/٥، وهي ١٠١° Fahrenheit (38°.33)، وتراوحت درجة حرارة سطح الدار التي كان يقيم فيها بوطوكي خلال مقامه بتطوان ما بين ٨١° و٨٢° Fahrenheit (٢٧,٢٢° و ٢٧,٧٧°)[٢١].

بادية تطوان[٢٢]

في طريقه إلى المدينة، انطلاقا من الديوانة، عبر طريق يمتد على مسافة فرسخ وسط بادية تطوان، لاحظ بوطوكي غنى هذه البادية بالزّرع والضّرع[٢٣]، وأشجار فواكه الغِرس القريبة من المدينة. فلقد تم الحصاد، (مطلع يوليوز) وأُطلقت المواشي في حقول القمح؛ وكان الفلاحون يجمعون الزرع، وبينهم عدد كبير من النساء[٢٤].

غِرس تطوان[٢٥]

Les plus beaux jardins du monde, de Foucauld

حوالي الساعة السادسة مساء، من يوم ١٧٩١/٧/٥، بعث القائد إلى بوطوكي يقترح عليه القيام بنزهة للتفسح في الغِرس الواقعة جنوب المدينة، صحبة ترجمانه اليهودي وحارسين... استأنف بوطوكي طريقه صحبة حارسيه، وعبروا مخاضة[٢٦] النهر (وادي مرتيل) ركبانًا، ثم ساروا بين الغِرس في دروب تحدها سياجات (زروب[٢٧]) من القصب المرصوص، تتخللها نباتات شائكة[٢٨]؛ وكانت هذه السياجات متقنة الصنع ونضيرة، يتقي بها أصحاب الغِرس ومحارمهم من أنظار الغرباء.

ودخل بوطوكي إلى إحدى هذه الغِرس صحبة حارسه، وقيل له إن نسوة يوجدن فيها، إلا أن سياجًا (زربًا) داخليًا آخر حجب بينه وبينهن. واستمر في نزهته داخل الغِرس وهو يسمع أصوات عدة نساء كانت تصله من اليمين والشمال، دون أن يتمكن من رؤيتهن من وراء سياجات القصب (زروب) التي لا تسمح بنفاذ الضوء، وكأنها بنيان مرصوص[٢٩]! وكان للقائد عدة غِرس مغروسة بأشجار البرتقال والليمون والتين والإجاص[٣٠]... وتوجد في بعض هذه الغِرس دُويرات وأكواخ بنيت من القصب على شكل عُرش تشبه تمامًا نظراءها في كل أنحاء غرناطة...[٣١].

وبعد بضعة أيام من فسحته الأولى في غِرس أشعاش[٣٢]، استُدعي بوطوكي يوم الاثنين ١٧٩١/٧/١١ للتنزه في غرسة راغون[٣٣]. ولقد حكى نزهته هذه قائلاً: «زارني سيدي التاودي بوهلال – الذي أصبح بفضل مصاهرته للإمبراطور من علية القوم في المدينة – لأقضي العشية صحبته في غرسة الحاج عبد الكريم راغون، وهو مغربي من أصل أندلسي، أي يتحدر من أحد البيوتات المعروفة بالأندلس[٣٤]. وغرسته أجمل من الغِرس الأخرى التي زرتها لحد الآن، وتبدو بحق ممتعة للرائي، أنىّ كان بلده. ولقد شاهدت زخرفة في الأرض لم يتخيلها بعد أي بستاني في أوربا، ويتعلق الأمر بمسائل تحد حواشيها عظام، هي عبارة عن عظام أفخاذ وظنابيب ذوات الأربع التي غُرزت في الأرض وقد رُصّت ترصيصًا، بحيث لا ترى منها إلا المفاصل التي تحد المسائل ذات اليمين وذات الشمال. ونظرًا لانتظامها، فلن أستغرب إن حاول الهولنديون تقليدها في بساتينهم الخلابة[٣٥]. وفي طريق رجوعي إلى مقر إقامتي بتطوان، شاهدت مدخل قصر الإمبراطور الذي له قصور مشابهة لهذا في جميع كبريات حواضر المملكة، بإمائها البيضاوات والسوداوات، وخصيان قائمين على حراستهن، وكل ما يتطلبه استقبال السلطان[٣٦]».

وفي يوم ١٧٩١/٧/١٤، خرج بوطوكي للنزهة مرة ثالثة في غرسة البروبي. وقال بخصوص هذه النزهة: «(...) وبعد عبورنا للنهر ومرورنا بين بعض الغِرس، وصلنا إلى غرسة سيدي محمد البروبي التي هي أقل جمالًا من غرسة الحاج عبد الكريم راغون التي زرتها سابقًا. (...) جاء سيدي محمد البروبي في وقت الغذاء، كما سبق أن وعدني بذلك. وتربعنا في جلوسنا إلى الطعام حول سماطين دائريين من الجلد الأحمر، خُصص أحدهما لباقي الضيوف، والآخر لرب البيت وسيدي التاودي، وكنت ثالثهما. وقدمت لنا أربعة أو خمسة أطباق حُضرت على الطريقة التركية، وشربنا اللبن الرائب»[٣٧].

مدينة تطوان

دخل بوطوكي إلى المدينة يوم ١٧٩١/٧/٢ من خلال باب من أبوابها[٣٨] التي لم يسمها، ولعل هذا الباب أحد الأبواب الثلاثة التي ذكرها صاحب مرآة المحاسن[٣٩] دون أن يحدد مواضعها؛ أما باب العقلة على شكله الحالي، فلم يبنه محمد أشعاش إلا عام ١٨٣٠ م، بأمر من المولى عبد الرحمن ابن هشام[٤٠]. غير أن السكيرج في حديثه عن سيدي عبد القادر ابن مرزوق[٤١]، ذكر أنه خرج هاربًا من باب العقلة، لما أزمع أهل البلد توليته قضاء المدينة. وكان ابن مرزوق قد توفي قبل ١١٣٩ ه (١٧٢٧ م)، وهو تاريخ وفاة المولى إسماعيل الذي كان قد أمر ببناء قبته. ويستنتج مما سبق أن محمد أشعاش قام على الأرجح بتجديد بناء الباب المذكور.

بيد أن بوطوكي الذي يصف طراز هذا الباب بالطراز العربي الجميل، يذكر كذلك مباشرة بعد الباب، قناة من الطراز نفسه[٤٢]. ومن المعلوم أن تاريخ قناة باب

العقلة، يرجع إلى ١١٦٤هـ (١٧٥٧ م)، في عهد ولاية الحاج محمد لوقش على المدينة (١١٦٤ هـ)[٤٣]. فهل دخل دخل بوطوكي المدينة من هذا الموضع، أي من باب العقلة، قبل أن يبنى على شكله الحالي؟

وتحدث الرحالة بعد ذلك عن الدروب الضيقة التي سلكها، والتي كانت كلها في ذلك العهد على الصفة التي اختطها الأندلسيون، وعن الدُّور التي بنيت على جوانبها، وقد أحسن تجصيصها، وهي لا تطل على الأزقة إلا من خلال نوافذ ضيقة[٤٤]. ولم يفت بوطوكي استراق النظر وهو يمر أمام مداخل المساجد، ليلاحظ أن بناياتها من الداخل، تشبه جامع قرطبة، فيما يخص الشكل الذي اعتُمد في توزيع السواري داخل المسجد[٤٥]. وشاهد يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/٥ حشدًا هائلاً من الناس يتجه من مخاضة النهر إلى المدينة، أكد له العدد الكبير لسكان تطوان التي تعتبر عامة، حسب بوطوكي، ثانية حواضر المملكة من حيث عدد السكان، بعد فاس، وتأتي بعدهما مراكش ومكناس وسلا، إلخ[٤٦].

التشابه بين الأندلس وتطوان

لفت انتباه بوطوكي التشابه الكبير بين مدينة تطوان وبلاد الأندلس بحاضرتيه غرناطة وقرطبة ومآثرهما. فخلال طريقه لزيارة البرج الذي أمر السلطان أشعاش ببنائه على الشاطئ، (يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/١٩)، في منتصف الطريق بين تطوان وسبتة، وهي أول جولة له خارج أرباض المدينة، تبيّن له من خلالها أن هذا البلد يشبه الأندلس إلى حد كبير فيما يخص الأشكال التضاريسية ومكوناتها، والغطاء النباتي، والثروة الحيوانية. فإذا كانت إفريقيا، حسب الرحالة، تبدأ في المضيق (جبل طارق) بالنسبة للجغرافي، فإنها لا تبدأ بالنسبة لعالم الطبيعة إلا فيما وراء جبال الأطلس[٤٧].

وكتب في طريقه إلى طنجة يوم الخميس ١٧٩١/٧/٢١: «لو لم نلتق بين الفينة والأخرى قوافل الجمال لحسبنا أنفسنا في بلاد الأندلس»[٤٨]. ويشمل هذا التشابه أيضًا بعض مباني المدينة. فمبنى ديوانة تطوان، حسب بوطوكي، يشبه تمامًا مباني الجمارك في الأندلس، ويُعنى به عناية تامة، شأنه شأن حصن مجهز بستة مدافع، وكذا جسر صغير بُني بالحجر بالقرب من مقر الديوانة[٤٩]. ولما استقبل القائد أشعاش بوطوكي في داره، أعجب الزائر أيما إعجاب بروعة هذا البيت وحسن تنظيمه وطراوة هوائه ونظافته، وهي صفات تعكس التأثر بذوق بناة قصر الحمراء بغرناطة[٥٠].

ولاحظ الرحالة في بعض غِرس تطوان دُويرات وأكواخ بُنيت من القصب على شكل عُرش تشبه تمامًا نظراءها في كل أنحاء غرناطة[٥١]، بما فيها جنة العريف (Généralife) [ربما يعني قصر الحمراء؟] التي كانت ستعد من بين أجمل المواضع الأثرية في العالم، لولا بوّاب ملعون قام بتشويه البناء الأصلي بإضافة رسوم جدارية تعكس ذوقًا هجينًا. وهذا التوافق في العادات بين الإسبان والموريين (les Maures) يشمل مجالات كثيرة، يمكن تخصيص كتاب لها، وبالتالي فلن أتطرق إليها في المناسبات الأخرى[٥٢].

وشاهد بوطوكي في طريق رجوعه من نزهته في غرسة راغون يوم الاثنين ١٧٩١/٧/١١ مدخل قصر السلطان (الإمبراطور)، الذي له قصور مشابهة لهذا في جميع كبريات مدن المملكة، وتتميز هذه القصور بأجنحتها العالية والمغطاة بقرميد مبرنق شبيه بنظيره الذي يغطي قصر الحمراء بغرناطة[٥٣]. ولم يفت بوطوكي استراق النظر وهو يمر أمام مداخل المساجد، ليلاحظ أن بناياتها من الداخل، تشبه جامع قرطبة[٥٤]، فيما يخص الشكل الذي اعتُمد في توزيع السواري داخل المسجد[٥٥]. ويفسر بوطوكي سبب بغضاء سكان تطوان وأرباضها للإسبان، بطرد هؤلاء لأجدادهم المتحدرين من موريي (les Maures) إسبانيا. ولقد تعرف بوطوكي على أحدهم، وهو ما زال يحتفظ بمعلومات عن الدار التي كان أجداده يسكنونها في قرطبة[٥٦]. ويقول عن الحاج عبد الكريم راغون، إنه مغربي من أصل أندلسي، أي يتحدر من أحد البيوتات المعروفة بالأندلس[٥٧].

وصف بعض شخصيات المدينة

عبد الرحمن أشعاش:

توجه بوطوكي يوم وصوله إلى تطوان لزيارة القائد عبد الرحمن أشعاش[٥٨] في داره، وهو الذي يسميه بعد ذلك عمر[٥٩]. وكان قائد المدينة[٦٠] لما أُخبر بوصول الزائر البولوني إلى الديوانة، بعث إليه بغاله ليُحمل وأمتعته... ووصفه مرتديًا ملابس بسيطة، قاعدا القرفصاء على بساط، في زاوية من روضته. وبعد الترحيب به، طمأنه قائلا له: إنه لن ينقصه أي شيء، وإنه إن شاء الله، سيرى وجه السلطان، وفي انتظار ذلك، فإنه سيُرافَق إلى الدار التي خُصّصت لمقامه في تطوان[٦١].

وفي يوم الاثنين ١٧٩١/٧/٤، استقبل القائد بوطوكي في داره، واحتفى به أكثر من المرة الأولى. ولقد أعجب الزائر أيما إعجاب بروعة هذا البيت وحسن تنظيمه وطراوة هوائه ونظافته[٦٢]، وهي صفات تعكس التأثر بذوق بناة قصر الحمراء بغرناطة[٦٣]. ثم غادر بوطوكي دار القائد مصحوبًا بشاب بهيّ الطلعة، كلفه أشعاش بمرافقته[٦٤]. وفي هذه الدار التي استدعي إليها بوطوكي لتناول طعام الغذاء، شاهد الرحالة في نفس اليوم البرتغالي الصغير الذي ارتد عن دينه، وتم تكريمه؛ ورأى بوطوكي في استدعاء هذا المارق تذكيرًا بانتصار الإسلام على دار الحرب[٦٥]. ولم يفت بوطوكي تسجيل مراحل رحلة القائد أشعاش (عمر حسب بوطوكي؟) إلى السودان[٦٦].

ويحكي لقاءه بأشعاش للمرة الثالثة يوم الخميس ١٧٩١/٧/٧ قائلاً: «بعد الغذاء، قضيت العشي مع القائد في ذلك البستان الذي استقبلني فيه يوم وصولي إلى تطوان. وحديثه دائمًا يهمني كثيرًا، لأنه كان يحدثني عن داخل البلاد الذي كان يعرفه جيدًا، بفضل الأسفار التي قام بها في البداية قصد الاتجار، والتي تلتها عدة أسفار أخرى بصفته رئيسًا لبغّالي السلطان. ولم يخف القائد عني أنه قبل أن يمتهن التجارة، كان جمّالا. وأنهى القائد سمرنا بحديثه عن طريق سفر قام به من فاس إلى طرابلس، عبر بلاد الجريد. ولم تكن ذاكرته وهو يروي تفاصيل مراحل سفره هذا قوية بالمقارنة مع روايته لرحلته إلى سوق أسّا (Soukassa) [هكذا] التي وصف لي مراحلها يوم الاثنين ١٧٩١/٧/٤»[٦٧].

وكان السلطان مولاي اليزيد قد كلف قائد تطوان ببناء برج مزود بثلاثة مدافع، على الشاطئ، في منتصف الطريق بين تطوان وسبتة. وخلال زيارة بوطوكي للقائد الذي كان يشرف بنفسه على عملية البناء، استقبله في خيمته وخصه بأحسن مجلس فيها قائلاً له إنه باستطاعته الآن أن يمشي فوق رأسه، ويضع قدمه على وجهه لأنه سيرى وجه السلطان قريبًا. ويعلق بوطوكي على كلام القائد هذا بقوله: «ولعل القارئ الذي يستشف من خلال هذه العبارات الاستبداد الذي كان سائدًا في المغرب، قد يرى أن هذا الكلام يعكس لغة عبيد آسيا، غير أنه سيكون خاطئًا في اعتقاده هذا لأن كلام القائد يعكس في الواقع الودّ الذي يكنه لسلطانه، أو تظاهره بذلك[٦٨]». واستقبل أشعاش بوطوكي لآخر مرة يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٢٠، حيث جاء قائد بأمر السلطان القاضي بالتحاق بوطوكي وحرسه بسفير السويد في طنجة التي سافر إليها اليوم نفسه. وقبل رحيله، استقبله أشعاش لتوديعه في المشور بلطافة صادقة، حسب بوطوكي، صِدْق المودة التي كان الرحالة يكنها له. ويضيف قائلاً: «وأعلم أنه كلما ذكرني في غيابي إلا وذكرني بخير»[٦٩].

محمد البروبي[٧٠]:

تعرَّف بوطوكي على أمين الديوانة محمد البروبي[٧١] يوم الأحد ١٧٩١/٧/٣ حيث زاره في محل إقامته. وهو حسب بوطوكي، شخصية أكثر نفوذًا من القائد؛ وكان للرحالة كتاب توصية موجه لأمين الديوانة هذا الذي قال له إن رجال الجمارك لن يقوموا إلا بإلقاء نظرة على ما تحتويه صناديق أمتعته، وأن هذا الإجراء ضروري، ويطبق حتى على أبناء السلطان أنفسهم[٧٢]. وفي الغد، توجه بوطوكي من دار القائد لزيارة أمين الديوانة محمد البروبي، في مقر عمله. ولقد وجد في صحبته شريفين من عائلة السلطان ومجموعة من أصحابهما، وكانوا قد قدموا من تافيلالت. ويقول بوطوكي بخصوصهم أنه لم ير قط في حياته أناس دِمام إلى هذا الحد، وقسمات أوجههم غليظة بهذا الشكل[٧٣]... ويبدو التناقض جليًا في وصف بوطوكي بين دمامة هؤلاء الفيلاليين والشاب التطواني الأندلسي الأصل، القسيم الوجه الذي كلفه أشعاش بمرافقته، أو أولئك النساء البهيات الطلعة اللاتي صادفهن في طريق رجوعه من إحدى نزهاته في أرباض المدينة.

وبعد عشرة أيام (١٧٩١/٧/١٤)، زار أمين الديوانة بوطوكي صباحًا لاستدعائه لقضاء اليوم في متنزهه ببادية تطوان، معتذرًا لعدم تمكنه من استقباله بنفسه، نظرًا لأشغاله التي لن تسمح له بالالتحاق بالرحالة وباقي الضيوف قبل وقت الغذاء، لكنه كلف ابنه بهذا الاستقبال. وخلال هذه النزهة، لاحظ بوطوكي سخرية ابن البروبي من "دروس الجغرافية" التي كان يعطيها له القائد (أشعاش)، وأضاف الفتى بخصوص القائد عبارات مختلفة أثبتت للرحالة أنه كان ضيف وسط معارض للقائد. وبالرغم من نزقه، كان هذا الفتى، حسب بوطوكي، رقيق الجانب[٧٤].

النساء

شاهد رحالتنا على شطان وادي مرتيل – الذي لا يسميه يوم وصوله إلى تطوان (١٧٩١/٧/٢) - جماعات من الصيادين، وسربًا من الإماء السوداوات اللائي كن يستحممن، غير آبهات بمن قد يسترق النظر إليهن.

وشبه بوطوكي سرّاق النظر المحتملين بالأكطيونيين[٧٥] (les Actéons). ولقد أُخبر رحّالتنا بأن هؤلاء النسوة السوافر[٧٦] العاملات في البادية ما هن إلا عجائز دمائم، وأما الجواري، والغواني منهن خاصة، فإنهن يعشن في نعيم. ولقد اقترب صاحبنا من بعض النسوة العاملات في الحقول، وتأكد من صحة قول مُخبره[٧٧].

وشاهد بوطوكي من أعلى سطح دار اليهودي (السرفاتي) التي كان يقيم فيها منذ (١٧٩١/٧/٣) النسوة المسلمات اللائي يمكن معرفتهن، حسب الرحالة، من خلال ملابسهن الفضفاضة والشبه شفافة (لعله الدفين)؛ غير أن التحديق في هذه العورات كان من الخطر بمكان، ويعرض صاحبه لا محالة للموت أو الختان[٧٨]! واقترب في نفس اليوم من سطح الدار التي كان يقيم فيها بوطوكي سرب من الجواري السوداوات والموريسكيات (moresques)، أثار وجوده فضولهن، إلا أنهن خفن وابتعدن على عجل[٧٩].

ويصف الرحالة طريق رجوعه من نزهته يوم (١٧٩١/٧/٥) في اتجاه المدينة، عبر نفس المخاضة التي عبرها في اتجاهه نحو غرس كيتان[٨٠]، ولقد صادف رجوعه رجوع حشد هائل من الناس يتجهون إلى المدينة من كل حدب وصوب، فيهم جمع غفير من النساء البهيات الطلعة، بعضهن يمتطي البغال، والبعض الآخر يعبر المخاضة على الأقدام، ماسكات أخفافهن في أيديهن. ولاحظ بوطوكي أنهن كن خلال عبورهن يحجبن وجوههن ويكشفن عن سيقانهن إلى ما فوق الرّكب، وكأن لا حرج عليهن في ذلك! ويخلص بوطوكي إلى القول إن مظهر النساء الموريسكيات (mauresques) أكثر احتشامًا من نظيراتهن التركيات. وبصفة عامة، حسب الرحالة، فإن المغاربة ينظرون للقسطنطينية كبؤرة فساد[٨١].

وأبدى بوطوكي خلال مقامه بتطوان عدة ملاحظات بخصوص لباس المرأة، والغيرة، والمحجبات والسّوافر، والفرق بين هؤلاء في المغرب، ونظائرهن في المشرق. «اقتربت اليوم (الجمعة ١٧٩١/٧/٨) جارية مورية (maure) من سطحي، وكانت تلك أول مرة تمكنت من خلالها تكوين فكرة عن الملابس التي ترتديها النسوة تحت حياكهن. فهي ملابس ملائمة للمناخ، بيد أنها غير مريحة. ومعظم النساء يرتدين ملابس يغلب عليها اللونان الأبيض والأحمر[٨٢].

وبخصوص الغيرة، سأقص هنا إحدى الحكايات التي حكاها لي صديقي بن عثمان، وهي نموذج من سرده سأحاول أن أقلده بأمانة ما استطعت. وهذه الحكاية مفيدة لفهم ممارسات المجتمع المغربي. ويتعلق الأمر بحكاية وقعت في فاس، وهي عبارة عن خيانة زوجية تمكنت أم الزانية، بدهائها، من تخليص بنتها من سوء مغبة فعلها. ومغزى الحكاية الذي عمل بن عثمان على إيصاله لصديقه بوطوكي من خلال سرده، هو التالي: إذا كان نساؤنا اللائي يُحبسن في البيوت يحتلن علينا كما رأيت، فما بالك فيما تفعله نساؤكم الحرائر! وذلك ما كان يقوله لي قبيل روايته للحكاية. وإني أتذكر أنه كان يقول أيضًا: كل شعوب العالم تجمع على أن النساء ناقصات عقل[٨٣]، غير أنها تستغرب لحبسنا لهن! [٨٤]».

وفي طريق فسحته في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، أبدى بوطوكي بخصوص نساء أحواز تطوان الملاحظات التالية: «وحوالي الساعة العاشرة صباحًا، أتى لمرافقتي سيدي التاودي بوهلال ببغاله، فانطلقنا سويًا في اتجاه جبال الغرب، وعبرنا النهر في منطقة أعلى من تلك التي عبرناه فيها في المرة السابقة. وشاهدت على ضفافه عدة غسّالات، سوداوات وبيضاوات سوافر، كاشفات عن سيقانهن وأذرعهن، وكذا رجالا كانوا يسبحون بالقرب منهن. فتعجبت من ذلك، فقيل لي إن الأمر يتعلق بإماء وخادمات لا يُعبأ بهن. وهكذا فإن الغيرة هي التي تفسر تحجّب النسوة في المغرب، بينما الدافع إلى التحجب في المشرق هو الورع. وبما أن المسنات من النساء في المشرق أكثر تدينًا، فإن تحجبهن أكثر تزمتًا، بينما نرى المسنات هنا في المغرب سوافر[٨٥]».

وضعية الأجانب في تطوان

لاحظ بوطوكي في اليوم الأول من مقامه بتطوان، أن الأجنبي لا يتعرض للسب وهو يجوب دروب المدينة، ولا يرى من سكانها إلا سمات تعكس طيبة القلب والنفس[٨٦]. ويضيف بوطوكي قائلاً إنه خلال كل الطريق الذي سلكه للنزهة في غِرس كيتان، يوم ١٧٩١/٧/٥، «لم أتعرض لأدنى شتيمة؛ صحيح أنني كنت وسط حارسيّ، ولكنني شاهدت ربابنة سفينة برتغال قاموا أيضًا بنزهة كتلك التي قمت بها تقريبًا، ولم يسبهم أحد[٨٧]. وفي طريق رجوعي [من غرسة البروبي، يوم ١٧٩١/٧/١٤]، مررت بالقرب من قبة[٨٨] (une chapelle)، حيث كانت عدة نساء وأطفال، تقدم أحدهم نحوي، وكان سنه يتراوح ما بين عشرة واثني عشر عامًا، وخاطبني قائلاً « fede di merda » (بئس الدين). وإني أذكر هذه الشتيمة لأنها أول مرة تعرضت

فيها للسب؛ ولقد تأثر بذلك المسلمون الذين كانوا يرافقونني تأثرًا بالغًا. ومنذ ذلك اليوم، لم أتعرض للسب إطلاقًا[٨٩]».

شعور المغاربة نحو الإسبان

لاحظ بوطوكي خلال مقامه في المدينة بغض المغاربة للإسبان ومقتهم مقتًا شديدًا. وذكر أنه لما يلتقي بعض العامة أجنبيًا، يبادره بالقول: «الإنجليز طيبون، والإسبان خبثاء»[٩٠]. ولقد صادف فيما مضى جماعة من الموريين إنجليزيَيْن كانا يقنصان في أرباض تطوان، فسألوهما هل هما إنجليزيان أم إسبانيان؟ وأراد الإنجليزيان أن يمتحنا درجة بُغض المغاربة للإسبان، فكذبا وقالا لهم نحن إسبانيان، فذاقا وبال أمرهما، وضُربا ضربًا مبرحا[٩١]. ويفسر بوطوكي سبب هذه البغضاء بطرد الإسبان لأجداد سكان تطوان المتحدرين من موريي (les Maures) إسبانيا. ولقد تعرف بوطوكي على أحدهم، وهو ما زال يحتفظ بمعلومات عن الدار التي كان أجداده يسكنونها في قرطبة[٩٢].

وضعية اليهود

حوالي الساعة السادسة مساء من يوم ١٧٩١/٧/٥، بعث القائد إلى بوطوكي يقترح عليه القيام بنزهة للتفسح في الغِرس الواقعة جنوب المدينة، صحبة ترجمانه اليهودي وحارسين. ولقد وجد الرحالة في باب محل إقامته بغلتين، إحداهما خُصصت له، والثانية لترجمانه[٩٣]. غير أن اليهودي لم يُسمح له بركوب مطيته وسط المسلمين، واضطُر للمشي على قدميه إلى أن خرج من باب المدينة، حيث سُمح له بامتطاء دابته. وبعد نصف ساعة من السير، توقف حارسا بوطوكي، وتحدثا إلى اليهودي هنيهة، اضطر الترجمان بعدها إلى الرجوع إلى الوراء. والسبب في ذلك هو أن المسلمين كانوا يحتفلون يومئذ بالعنصرة[٩٤]، أو حفلة الحصائد، وكانوا بالتالي سيلتقون في طريقهم لا محالة عددًا غفيرًا من المحتفلين، فلا يمكن والحال هذه أن يسير اليهودي ممتطيًا بغلته في حين يمشي المؤمنون الحقيقيون على أقدامهم، فذلك من باب المنكر[٩٥] !

ووصف بوطوكي حاخام مكناس الذي زاره في محل إقامته بتطوان يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٦؛ وكان هذا الحاخام قد علم بأن الرحالة يبحث عن كتاب Rabi (Jehoudah-Levi el –Khozari)، فأتاه بهذا "الكنز"... ويقول بوطوكي بخصوص الحاخام: «وعلاوة على كونه علّامة في الفقه الحاخامي، فإنه كان متضلعًا من فلسفة أرسطوطاليس. ولقد سألني[٩٦] هل يهتم علماؤنا أيضا بدراسة هذه الفلسفة؟ فأجبته بأن أوربا تخلت منذ مدة طويلة عن هذا النوع من الدراسات النظرية، وأقبلت على العلوم التجريبية، وأنها تركت الاستدلال وطورت الآلات العلمية. وشرحت له بعض التجارب فيما يتعلق بالكهرباء، والمواد الغازية، واستعمال الموصّلات (les conducteurs) إلخ. وكان ينصت لي بإعجاب مشوب بالتحسر؛ وتأسفت على مصير هذا الشيخ الذي استنفد قدراته العقلية في أعمال فكرية لا تجدي نفعًا. ولو أنه شحذ ذهنه في أوربا، لصار عالمًا شهيرًا. وكانت مكتبة هذا الحاخام في مكناس تحتوي على عدة كتب طُبعت في بولونيا[٩٧]».

ولاحظ بوطوكي في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، استهزاء أحد أحفاد صاحب الغرسة بقبعة ترجمانه، اليهودي السرفاتي. وكان هذا الشاب يبلغ من العمر ما بين خمس وست عشرة سنة، ويمرح كما يمرح صنوانه من شبان الفرنسيين[٩٨].

الحيوان والقنص

شاهد بوطوكي في طريقه إلى تطوان بعد نزوله من السفينة، أعدادًا كبيرة من اللقالق[٩٩] التي بنت أوكارها فوق سطوح أكواخ قرية صغيرة بأرباض تطوان، لم يشاهد نظيرها فيما تقدم من حياته[١٠٠]. وحدّثه القائد أشعاش يوم استدعاه إلى داره (١٧٩١/٧/٧) عن القنص: «وأراد القائد أن يرفّهني فاقترح عليّ مطاردة الرّت بكلاب صيده، وهي صغيرة الحجم لكنها من فصيلة جيدة. ولا يصطاد الموريون (les Maures) الرت إلا للتسلية، لأنهم لا يأكلون لحمه أبدًا. غير أنني تعجبت من رؤيتهم وهم يلمسون هذا الحيوان بلا حرج، بل منهم من لطّخ ملابسه بدمه[١٠١].

وبخصوص القنص، حدثني القائد عن النُّمر التي كثيرًا ما تأتي إلى أحواز تطوان، وفي بعض الأوقات تأتي الأسود أيضًا. ولما يفترس بعض هذه السباع بقرة أحد الجبليين، فلا يهدأ له بال حتى يقتل الحيوان الضاري ويأكل من لحمه. وهذه العادة عامة في أوساط الجبليين، وتفسرها الممارسات الخرافية والثأر من السباع[١٠٢]». وفي يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/١٣، أتاه بربريان (2 Brèbes) [هكذا] بإهاب نمر (une panthère) قُتل قبل ذلك بقليل. ولقد قدما من الجبال الواقعة على بعد ثلاث مراحل من تطوان. وكانا مع أصحابهم في جماعة من عشرين قناصًا حاصروا مأوى هذا الحيوان الذي كان يغير وجهته من قناص لآخر وكأنه

يطير من شدة العدو. وهو الذي افترس شابًا بربريًا، وجرح آخرين.

وعلم بوطوكي بالمناسبة بوجود عدة ضباع بأرباض تطوان؛ ولقد نُسجت بخصوصها عدة أساطير، من بينها أن الرجل يصبح غبيًا بعد أكله لمخ هذا الحيوان. ويوصف الغبي عادة بالمثل القائل «كْلا الضباع[١٠٣]». كما وصف طريقة صيد الأرانب الوحشية بواسطة النمس[١٠٤].

ألعاب الفروسية في تطوان

شاهد بوطوكي خلال مقامه في تطوان ألعاب الفروسية، وتحدث عن خصائص فن الفروسية في المغرب، وتشابه طريقة ركوب المغربي والبولوني، ووصْف إنجليزي للفرسان المغاربة[١٠٥].

العامة

ملاحظات بوطوكي عن عامة تطوان وأرباضها قليلة. ويشير الرحالة إلى أن الخاصة قليلة الاكتراث بديانة العامة التي لا يعرف أفرادها في الأرياف النائية كيف يؤدون صلاتهم، وشعورهم الديني الوحيد يكمن في بغضهم الشديد للنصارى. ولقد تكونت لديهم بخصوص هؤلاء أفكار عجيبة، إلى حد تصورهم أكلة لحوم البشر![١٠٦] كما شاهد أبناء العامة يلعبون كرة القدم (la pelota) في تطوان بنفس الطريقة التي يلعبها بها نظراؤهم الإسبان[١٠٧].

وبعد انصرافه من الحفل الذي أقيم على شرف موكب المارق البرتغالي يوم ١٧٩١/٧/٤، تزاحم الناس، وخاصة الأطفال، وسدوا الطريق التي كان يسلكها للرجوع إلى مقر إقامته؛ فشرع الحراس الذين كانوا يرافقونه في ضرب المارة بعصيهم حتى يحيدوا عن الطريق، ويتمكن الرحالة ومرافقوه من المضي قدمًا، فلاحظ بوطوكي أن الحراس لا يضربون إلا الجبليين ذوي البرانس[١٠٨] المخططة، وليس فتيان الحاضرة وحيّاكهم البيض[١٠٩].

والتقى بوطوكي بعيساوة تطوان، يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٦، وذكر أن شيخهم مدفون في مكناس، وهم في رأيه مشعوذون لا غير. ولقد سبق للرحالة أن رأى في المشرق مجانين عُنف من كل الأصناف. كما سبق له أن قرأ كتاب (M. Le Gentil) الذي بيّن من خلال ملاحظاته في الهند الطرق التي يستعملها الهنود لإزالة السم من الأفاعي. وبما أنه كان يعرف هذه الحيل من خلال مطالعاته، فإنه لم يطرح أي سؤال على عيساوة[١١٠].

التجارة[١١١]

تجوّل بوطوكي يوم ٨ /١٧٩١/٧ في قيسارية تطوان، وقال عنها: «هي ما يسمى في المشرق بالبزار، ويمكنني القول بناء على ما شاهدته، أن حجم تجارة تطوان يناسب مدينة من الدرجة الثالثة، فيما يتعلق بتصنيف المدن التي يقوم اقتصادها على التجارة. والذي ينبغي ملاحظته هنا هو أن التجار تعودوا على عرض عينات فقط من البضائع التي يخزنونها في مخازنهم بكميات كبيرة. ولقد أعجبت أيما إعجاب بأنسجة فاس، وهي من الفنون التي تشهد بحق على ازدهار حضارات الأسر الحاكمة التي تعاقبت على السلطة في هذا الجزء من إفريقيا. كما شاهدت منتجات صناعة الدباغة المغربية الشهيرة التي اشتق منها اسم "ماروكان" (maroquin) بالفرنسية، والذي يعني كل الأهب المصبوغة[١١٢]. والأثواب المطرزة التطوانية تعادل في جودتها تلك التي تصنع في القسطنطينية. ولاحظت في السوق "البراحين[١١٣]" يحملون السلع صائحين لبيعها بالمزاد. وهي ممارسة في المجتمعات العربية ينبغي معرفتها لفهم عدد لا يحصى من نصوص ألف ليلة وليلة[١١٤]».

الأخلاق

في رسالته المؤرخة ب ١٧٩١/٧/١٣، تناول الرحالة جانبًا من جوانب الأخلاق في تطوان، وكتب فيها ما يلي: «لقد سبق لي وأن ذكرت في إحدى رسائلي أن الأخلاق هنا يغلب عليها التزمّت، وهذا صحيح. واليوم، أتيحت لي الفرصة لأعلم أن ظاهرة مغازلة النساء منتشرة في المدينة، وهذا صحيح أيضًا. ولا أدري كيف سيحكم قرّائي على هذه الثنائية في سردي لهذه الرحلة. بيد أن الشعوب تتكون من جماعات من الأفراد، والفرد مزيج من التناقضات، فطبيعي إذًا أن يوجد في هذا المجتمع الزّمتاء والظرفاء الذين يغازلون النساء.
إلا أن المغازلة بين العشاق في تطوان تتم سرًا. وهوى الحبيب لحبيبته الذي طُبع الإنسان عليه، والذي يتجلى للعيان في المجتمعات الأخرى، يكتَّم هنا تكتيمًا. ولكن يوجد هنا شخصان من علية القوم، لن أسميهما، لا يكتمان ما يخفيه الآخرون، ولا يجرؤ القائد على الاصطدام بهما. لكنه لم يُظهر نفس التساهل مع أخي خليفته حمدون الذي ضُبط متلبسًا مع خليلته، فجلده جلدًا مبرحًا أقعده في فراشه لمدة ثلاثة أشهر. ولكن، بما أن القوانين "السخيفة" تقف سدًا منيعًا أمام

هوى العاشقين، فإن طبيعة هذا الهوى تتغير حتماً، وينقلب بالتالي الحب بين الرجال والنساء إلى سحاق تتكتّمه الإناث، ولواط يكاد يجهر به بعض الذكور(١١٥)».

الثقافة والعلوم

كان بوطوكي رجلاً غزير العلم، واسع الاطلاع، كثير القراءة، قوي الذاكرة(١١٦). ولقد ذكر في رحلته العديد من المؤلفين الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين الذين استشهد بكتبهم في مقاطع شتى من كتابه، نذكر من بينهم (M. Volney(١١٧)، وM. Le Gentil(١١٨)، وT. Shaw(١١٩)، وBruce(١٢٠)، وPr. Clénart(١٢١)، وL'abbé Todérini(١٢٢)، وCronstedt(١٢٣)، وWallerius(١٢٤)، وHomann(١٢٥)). ورأينا سابقًا أنه بعث إلى مكناس يطلب كتاب (Rabi Jehoudah-Levi el–Khozari)، ثم بحث في تطوان عن كتاب ألف ليلة وليلة(١٢٦)، ولكن بلا جدوى. ويبدو أن الطالب(١٢٧) الذي حدثه في هذا الموضوع افترى عليه كذباً، وادعى وجود عنوان كتاب لم يُسمع به إلى اليوم، وزعم أن "جعفر البرمكي" عنوان كتاب... وفيما يلي بعض محتوى الرسالة المؤرخة بـ ١٧٩١/٧/١٢: «أتى هذا الصباح لزيارتي طالب شاب كان قد كُلف بأن يبحث لي عن نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة. فقال لي إن هذا الكتاب الذي كنت أرغب في الحصول عليه، يحمل عندهم عنوان ثلاثمائة وأربع وخمسون ليلة: عدد أيام السنة القمرية، وأنه لا توجد في المدينة أية نسخة من هذا الكتاب؛ لكنه أتاني بكتاب آخر ينتمي لنفس الفن الأدبي، وعنوانه "جعفر البرمكي"، وهو يشتمل على العديد من الحكايات الواردة في الكتاب الآخر. ولما كنت أستمع إلى ترجمة مستهل هذا الكتاب (جعفر البرمكي) الذي يروي حكاية سلطان كان يصطاد ظبيًا أبيضًا، فتاة في قصر مسحور ... أُعلن عن مجيء سيدي التاودي بوهلال؛ فخبأ الطالب توًّا كتابه تحت جلبابه، وفر بنفسه عبر السطوح، وهو ما أثبت لي أن هذا البلد لم تتغير أحواله قط، وذلك منذ الرحلة التي قام بها إليه الأستاذ كلينار (Clénart) في القرن XVI، والذي غادره دون أن يتمكن من حمل أي كتاب من الكتب التي كان قد اشتراها في فاس.

وبخصوص العلوم، ينبغي القول إنه توجد بتطوان مدارس(١٢٨) حيث تُلقن مبادئ أقليدس(١٢٩) (Euclidès)، وبعض الجبر، وعلم الفلك، اعتماداً على كتاب المجسطي(١٣٠) لبطليمس(١٣١). والمغاربة متشوقون عمومًا إلى المعرفة، ويجادلون في علم كهذا (الفلك) إلى حد ما. غير أنهم ما زالوا يومنون بالفكر الخرافي. وهكذا فبعد تفسيرك لهم الجاذبية، أو تكوين النيازك، فإنهم يبادرونك بأسئلة غريبة مثل كيف يتمكن سكان أوجلة (Ougela) [في ليبيا] من قتل إنسان إذا رأوه بعينهم اليسرى، وكيف يتمكن سكان أفنو (Afnou) [في النيجر] من شرب دم إنسان وهو على بعد مائة خطوة منهم؟ ونكران هذه الظواهر التي يحدثونك عنها، بعد إصغائهم إليك، يعتبر قلة أدب لا تغتفر في الأعراف المغربية(١٣٢)».

ولاحظ بوطوكي خلال نزهته في غرسة راغون، يوم ١٧٩١/٧/١١ حيث لم يكن معه في تلك العشية ترجمانه، أن بعض الحاضرين في ذلك الجمع كان يتكلم الإسبانية، والبعض الآخر التركية، فقضى والحال هذه أمسية جد ممتعة(١٣٣). وخلال نزهة أخرى في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، حضر بعد الغذاء، لعبة trisset "التريسي"(١٣٤)، وهو ورق لعب مشهور في كل مدن الإمبراطورية. وكانت مصطلحات هذا اللعب إسبانية(١٣٥).

التطبيب

لقد عرف بوطوكي في اليوم الذي قضاه في غرسة البروبي أن التلقيح كان معروفاً في تطوان منذ زمن طويل، ولكن عدة أمهات كن يفتقدن الشجاعة الكافية لتطعيم أبنائهن بطعم الجذري(١٣٦). ولاحظ أنه لا يوجد بتطوان أطباء، ولكن عدة عائلات تطوانية تتوفر على كتاب "القانون في الطب" لابن سينا الذي يتم الرجوع إليه كلما دعت الضرورة ذلك، حتى يتم تشخيص المرض(١٣٧).

أحكام عامة

أبدى بوطوكي بعض الملاحظات الذكية على سلوك المغاربة فيما يتعلق بتفسير ظاهرة الهدايا وتبريرها في المجتمع. ولم تفت بوطوكي الإشارة إلى أن خدام المخزن لا رواتب لهم، وبالتالي فهذه الهدايا " نفع" لا بد منه في هذا الوسط. وهناك ظاهرة أخرى استوقفت انتباهه، وهي مبالغة المغاربة في الكذب، وأمام الملأ.

الهدايا

في يوم ١٧٩١/٧/٨، بعثتُ أربعة مناديل حريرية إلى حفيدة القائد الصغيرة التي يربيها في داره. وإني أدون هذه الترهات لأنها تبين السلوك الذي ينبغي سلوكه مع المغاربة. فالهدايا وإن كانت قليلة قيمتها، تحفظ الود هنا أكثر من أي مكان آخر في الدنيا. صحيح أن الهدايا الثمينة قد تنجح أكثر في حفظ هذا الود، لكن تقديمها بلا انقطاع قد يؤدي إلى إفلاس صاحبها.

والناس هنا يعربون عن رغبتهم في الحصول على الهدايا بالمكشوف، وبطرق تصدم معظم الأجانب صدمة عنيفة. إلا أن هؤلاء لو فكروا في الأمر مليًا، لتبين لهم أن لا فرق بين ممارساتهم وممارسات المغاربة فيما يتعلق بتقديم الهدايا إلا من حيث الشكل. فالثروات في جميع أرجاء الإمبراطورية جد مجزأة؛ ولا يوجد فيها شخص موسر لا يدير ممتلكاته باقتصاد، وبالتالي فالهدايا المفيدة هنا، وإن قلت قيمتها، تُتلقى بسرور[١٣٨].

ثم إن رجال المخزن لا يتقاضون رواتب قارة. والتقدمات التي يقدمها أفراد من الطبقة الدنيا إلى آخرين من الطبقة العليا في أوساط العرب، تعني منذ القدم احترام المرؤوس لرئيسه وإجلاله. وبالتالي فالرئيس الذي يتلقى الهدية قد يقول لنفسه وهو يتلقاها: «لقد انتفعت وشُرِّفت». ثم هل هناك بلد في العالم يوجد فيه رجل ذو نفوذ لا يتحيّل ليُحل مداخيله غير المشروعة، وذلك حتى يشعر بالرضى عن النفس؟ وأخيرًا، إن الدليل على أن الموريين يرون حصولهم على تقدمات شيئا شريفًا، يكمن في إصرارهم على أن يُحتفل بهم وهم يتلقون الهدايا علانية[١٣٩].

كذب المغاربة

والمغاربة (les Maures) عموما يكذبون كثيراً. فهم يكذبون أولا بشكل دائم، كلما تعلق الأمر بإعطاء صورة عن بلدهم، بحيث تكون هذه الصورة دائما في صالحه. وهم يكذبون ثانيًا لأنهم يحاولون اكتناه نية الرحالة حتى يجيبوه إجابات تطيب لها نفسه. وبالتالي فينبغي على المرء أن يحرص كل الحرص على الطريقة التي يطرح بها أسئلته؛ ويحسن أن يُسأل أحدهم وسط مجمع من الناس، وليس على انفراد. غير أن اتخاذ هذا الاحتياط لا طائل منه لأن المغاربة لا يخجلون من الكذب أمام الملأ، والمستمعون لا يجدون في هذا الفعل أي غضاضة، ويصدقون المحدث حتى يُضلوا الأجنبي. ثم إن المغاربة يعتقدون أنه من باب الأدب إرضاء الضيف في كل شيء. ولما كنت أحيانًا أطرح أسئلة ذات طابع جغرافي، أذكر أسماء مدن لم توجد أبدًا، كانوا يؤكدون لي أنهم يعرفونها حق المعرفة. والواقع أنني لم أعرف إلا استثناءين فيما يخص ظاهرة كذب المغاربة، وهما صاحبي بن عثمان وقائد تطوان الذي حاولت مرارًا أن أختبر صدقه، دون أن يشعر بذلك. والآن وقد أنهيت رحلتي، ليس لي ما أضيفه إلى هذين الاستثناءين. وكان من بين ضيوف البروبي في غرسته (سكرتير) باشا سبتة[١٤٠]. فطرحت عليه بعض الأسئلة المتعلقة بانضباط جند هذه المحلة، فلم ألبث أن اكتشفت أنّ أجوبته كانت كلها كذبًا. ولم أخفه استنكاري عدم صدقه، فزاد ذلك في إثارة ضحكه[١٤١].

اختلاف مفهوم الزمن بين المغرب وأوربا

قال له القائد يوم ١٧٩١/٧/٣ إنه من الأحسن أن يبعث مع الرسالة الموجهة إلى السلطان كتاب التوصية؛ وهكذا علم بوطوكي أن الرسالة التي كان من المفروض أن تُرسل البارحة، أي يوم وصوله، ما زالت بتطوان. ويقول الرحالة بهذا الصدد: «على المرء أن يتعود على هذا التمهل الذي يميز نمط عيش المسلمين، أو يَعدل عن السفر إلى بلادهم». فليس لهؤلاء أدنى فكرة عن قلة الصبر، تلك النقيصة التي تميز الأوربيين بالتأكيد، والتي لا وجود لها تقريبا في باقي نواحي العالم[١٤٢].

اختلاف المغرب عن المشرق

رجعت إلى المدينة عبر المقابر، ولاحظت أن أشكال القبور تختلف تمامًا عن نظرائها في المشرق، وهو اختلاف يشمل أيضًا المساجد والصوامع والمذاهب المتبعة؛ فالغرب الإسلامي كان دائمًا مالكي المذهب، بينما اتبع المشارقة مذاهب أبا حنيفة وابن حنبل والشافعي[١٤٣].

مفهوم الضجر

حضر بوطوكي مع عدد كبير من المدعوين مأدبة الغذاء التي أقامها البروبي في غرسته، ولم يجاذبهم أطراف الحديث إلا نادرًا؛ ويبدو أن ذلك لم يحرجهم. ولم يكن ذلك، حسب الرحالة، بسبب قلة لطفهم أو عدم اعتنائهم به، لأنهم كانوا في نظره: «لطافًا وشملوني بحسن الالتفات؛ فكانوا يملؤون غليوني بالتبغ، ثم ينظفونه، ويقدمون لي الشاي والقهوة والفواكه، ويحمونني من الريح، ويسألونني هل أعاني من الحر أو البرد[١٤٤]... إلا أن احتمال ضجر ضيف أجنبي، وسط قوم يتحادثون وهو لا يفهم حديثهم، لم يخطر ببالهم، لأنهم لو كانوا مكاني لما ضجروا، كما لا يضجر أمثالهم من أهالي باقي بلاد إفريقيا وآسيا وأمريكا. والسبب الرئيس لهذا الداء الأوربي (الضجر) يكمن في تتابع الدروس التي تملأ كل أوقات طفولتنا بحيث يتعود المرء على الشغل طول وقته إلى أن يصبح هذا الشغل ضرورة قصوى. بيد أن المشارقة لم يتعودوا على ذلك، ولا يشعرون بضرورة شُغل أنفسهم بلا انقطاع[١٤٥]».

بعض الشخصيات البارزة التي تعرف عليها بوطوكي خلال زيارته لتطوان

تلقيتُ زيارة الطالب بوفارس (Boufarès)، وكان من بين أعضاء السفارة التي ُوجهت إلى فيينا (عاصمة النمسا). وكنت قد طلبت منه نصّ رحلته إلى الديار النمساوية، فأتاني به. وأعطى بوطوكي بعض تفاصيل هذه الرحلة التي تعرف من خلالها على حفلة راقصة (un bal) كانت قد نُظمت في قصر أمير ليشتنشتاين (Liechtenstein) حيث ظهر المغاربة في حفل أوربي لأول مرة، وحيث كنت حاضرًا أيضًا(١٤١).

خَاتِمَةٌ

كان بوطوكي أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد المولى اليزيد (١٧٩١). ولقد ترك لنا في رحلته وصفًا دقيقًا لمدينة تطوان ومجتمعها في أواخر القرن الثامن عشر. فهو يحدثنا عن بعض أبوابها، ومبانيها، ومساجدها، ودروبها الضيقة، وغنى باديتها بالزرع والضرع، وأجنتها الجميلة، وطيورها، وحيوانات أحوازها، وقنص بعضها... كما يحدثنا عن المجتمع التطواني، بوصفه بعض أفراد الخاصة وبيوتاتهم ونمط عيشهم، وثقافتهم، كما يصف العامة من خلال ملبسها وسلوكها وبعض ألعابها... والنسوة حاضرات في هذه الرحلة، الإماء السوداوات، والجواري الموريسكيات، وملابس السوافر منهن والمحجبات، وأنشطتهن في أرباض المدينة أو فوق الأسطح... كما يحدثنا عن وضعية اليهود في المدينة، وبغض الموريين الشديد للإسبان. وشملت ملاحظاته أيضًا المغازلة بين العشاق في تطوان، وأهمية الهدايا التي تحفظ الود بين الأصحاب؛ وهو يكذّب ما زعمه شينيي (M. Chénier) من أن المغاربة لا يعرفون معنى للصداقة. ويحدثنا بوطوكي عن التمهل الذي يميز نمط عيش المسلمين، واختلاف مفهوم الزمن بين المغرب وأوربا، والتباين بين المشرق والمغرب فيما يخص مجموعة من الظواهر... وتبقى هذه الرحلة وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ المغرب عامة، وتاريخ تطوان خاصة.

الهَوامِشُ:

(١) اعتمدت في هذه الدراسة على الطبعة التالية:
POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, fait en l'année 1791. Préface de Jean-Louis Miège, Paris, Maisonneuve et Larose, 1997.
ولقد ورد نص هذه الرحلة أيضا في طبعة صدرت في ١٩٨٠:
POTOCKI (Jean), Voyages en Turquie et en Egypte, en Hollande, au Maroc. Introduction et notes de Daniel Beauvois, Fayard 1980.

(2) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 37.

(3) Ibid., p. 21.

(٤) يسميها بوطوكي (ص. ١٧) خطأ سلسلة الأطلس الصغير la (chaîne du Petit Atlas).

(5) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 17.

(٦) الذي لم يسمه في صفحات:١٨؛ ٣٩و؛ ٦٦-٦٧؛ وسماه بسيْل "بوصفياح" (Bousfiah)، وهو تصحيف لبوصفيحة في ص. ص. ٨٠-٨١، مذكرا باحتمال مطابقة هذا الاسم لاسم (Bousherah)الذي أورده الخرائطي الألماني هومان (J. B. Homann) في أطلسه الذي صدر في نورمبرغ (Nuremberg) سنة ١٧١٦؛ وراجع دراستنا: "نهر تمودة، النهر ذو الأسماء الخمسة"، **من الأندلس إلى تطوان**، أعمال الندوة التكريمية للدكتور امحمد بن عبود، تطوان ٢٠١٣، ص. ص. ٤١٣-٤٣٦. وانظر وصف دو فوكو الدقيق لهذا النهر:
FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, 1888, p. 3 :«Dans toute la route [entre Tanger et Tétouan], un seul passage difficile, les environs du col. [...] Un seul cours d'eau important, l'Ouad Bou Çfiḥa (berges escarpées de 5 à 6 mètres de haut ; eau claire et courante de 6 à 8 mètres de large et de 0,30 à 0,40 centimètres de profondeur ; lit de gravier). On le franchit sur un pont de deux arches en assez bon état».

(٧) كلمة معربة قديما من الفارسية، وهي جُنيبة من فصيلة الخلنجيات، خشبية. لها أزهار كثيرة غالبا ما تكون وردية اللون. وأوراق دقيقة، تزرع للتزيين. راجع: **المنجد في اللغة والأعلام**، مادة خلن؛ و**معجم المصطلحات العلمية والفنية**، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، بدون تاريخ، مادة: خلنج.

(8)- POTOCKI (Jan), op. cit., p. 18 ; POTOCKI (Jean), Manuscrit trouvé à Saragosse, Texte établi, présenté et préfacé par R. Caillois, Gallimard, 1958, p. 200 : « Le chef des Bohémiens me fit apporter un ample déjeuner et me dit :
- Seigneur cavalier, les ennemis approchent, c'est-à-dire les gardes de la douane. (...)».
وانظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**، تقديم وتحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ١٩٨٣، ص. ٣١: «عادة المكس بتطوان:

وكانت عادة قبيحة بتطاون ابتدعوها، أنهم يأخذون كلما معك، ويحملونه إلى دار العشر...».

(٩) ورد في الجزء الأول من مؤلف الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان/ جمعية تطاون أسمير، ١٩٩٨، ص. ١٩٤: أن سيدي محمد بن عبد الله «لما زار تطوان عام ١١٧٢ ه، لقيه أهلها، ما عدا قائدهم السيد محمد بن عمر لوقش، فإنه فر للحرم العلمي، ... فعزله وولى عليهم كاتبه عبد الكريم ابن زاكور الفاسي الذي أمر ببناء برج مرتيل، في مصب وادي مرتيل والديوانة القديمة، (أي دار مرتيل) القريبة له». وعن بناء برج مرتيل عام ١١٣٢ ه (١٧١٩ م)، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، تطوان، دار كريماديس للطباعة، بدون تاريخ، الطبعة الثانية، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٤٩: «في عام ١١٣٢ بنى القائد أحمد بن علي الباشا برج مرتيل بإذن مولانا إسماعيل، وعين للقنطار من الشمع الذي يخرج من المرسى أوقية، ولقنطار الجلد نصف أوقية، وأمر أن يصرف ذلك على من يحرس في سبيل الله بالبرج المذكور. ومن المعروف أن البرج المذكور ما زال قائما إلى الآن وأن موقعه على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عن يسار مصب النهر الكبير المنحدر من القبائل الجبلية الواقعة غرب تطوان وجنوبها، كما أن من المعروف أن ديوانة ميناء تطوان تقع قرب هذا البرج، ومنها كانت توسق صادرات تطوان ونواحيها إلى الخارج، ومن أهمها الشمع وجلود المواشي، (...). وسيأتي لنا عن **الاستقصا** أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أمر ببناء هذا البرج مرة أخرى عام ١١٧٣. ويظهر أن هذا البناء إنما كان تجديدا فقط، كما أن من المعلوم أن تجديدا آخر وقع فيه بعد حرب سنة ١٢٧٦ ه ١٨٦٠ م إذ كانت مدافع الأسطول الفرنسي قد قنبلته وألحقت به أضرارًا جسيمة». ولقد ذكر برايث وايت برج مرتيل قائلاً: «وحالما وضعنا أرجلنا على الأرض، حيتنا مدفعية البرج القائم على مصب النهر بإطلاق نيرانها، وهي تتكون من مدفعين هما كل ما في هذا الحصن الذي بني لمراقبة الإسبانيين، وهو حصن لا يمكن الصعود إليه إلا بسلم، (...)»؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١١٦.

(١٠) هو الذي ولاه المولى سليمان على تطوان، بعد عزل عبد الرحمن أشعاش عام ١٢٠٦ ه، وأقام حاكما عليها نحو عام، حيث عزله السلطان نفسه عام ١٢٠٧ ه. راجع بخصوصه: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ج ٢، الطبعة الثانية، ألطوبريس، ٢٠٠١، ص. ٦٦؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ١٩٧، الهامش ١: « - الكاتب السيد محمد بن عثمان، ترجم له ابن زيدان في **الإتحاف** (ج ٤، ص. ١٥٩)، وذكر أنه «محمد بن عبد الوهاب بن عثمان الكاتب السفير الرحالة الوزير [الكبير] المكناسي النشأة والدار.»، ووصفه أيضا بالفقيه العلامة الأديب الشاعر، وذكر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله اتخذه كاتبا، ثم استوزره واتخذه سفيرا لدى الدول، ثم ذكر أنه ألف كتاب "**الإكسير في فكاك الأسير**"، وهو رحلته الأولى لإسبانيا، وكتابه "**البدر السافر**" عن رحلته الثانية لمالطة ونابولي، وكتاب "**إحراز المعلى والرقيب**" عن رحلته الأخرى للحجاز وغيره، وكانت وفاته رحمه الله عام ١٢١٣ على ما ذكره بعض المؤرخين، أو عام ١٢١٤ حسبما حققه أخونا العلامة المدقق الأستاذ محمد الفاسي حفظه الله »؛ وص. ٣٨٣: « حول ولاية الكاتب محمد بن عثمان على مدينة تطوان (...)، ص. ٣٨٤:« (...) ثم بعد تاريخ تلك الرسالة (١٦ رمضان من عام ١٢٠٦) بستة أشهر، أسند مولاي سليمان إلى ابن عثمان الولاية على تطوان وكلفه بمباشرة ما بين المغرب والأجانب من مصالح وشؤون، فكان بذلك قائما مقام وزير الخارجية، ومن المعروف أن ممثلي الدول الأجنبية من سفراء وقناصل (...) إنما كانوا يقيمون أولا بتطوان عندما كانت طنجة تحت الاحتلال البرتغالي ثم الإنجليزي، فلما استرجع المغرب طنجة من يد الأجانب، انتقل إليها نواب الدول الأجنبية بعد سنين عديدة، ثم بعد ذلك بمدة أنشئت عدة قنصليات في مدن أخرى بالمغرب».

(١١) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، المطبعة المهدية، تطوان، ص. ١٨٥: « [من السلطان مولاي اليزيد] إلى حاكم سبتة، سلام على من اتبع الهدى، وبعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان طلبتم منا بعثه إليكم، وقد بعثناه وذكرنا له شروطا ثلاثة، وهي التخلي عن مدننا، أو دفع الجزية عنها، وإلا فالقتال أو المحاربة، وقد توجه وأقام عندكم هذه مدة من أحد عشر شهرا وما جاءنا جواب نعتمده، وإنما يأتينا أنكم تقولون عند الأمر والنهي، وأفعالكم ما طابقت أقوالكم، (...) وقد أعلمناكم وجعلنا لكم شهرا وعشرة أيام من الثاني من غشت آخرها الحادي عشر من شتنبر، (...) وبيننا وبينكم الشهر والعشرة الأيام، وفي الثالث عشر من ذي الحجة الحرام عام خمسة ومائتين وألف (١٧٩١/٨/١٣)؛ ص. ١٨٧: «: [من السلطان مولاي اليزيد] إلى عظيم صبانيات والهند الري كارلو الرابع، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فاعلم أننا كتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يعقد معك الصلح والمهادنة، (...) وكتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يمضي معكم الصلح والمهادنة والسلام، في ٥ صفر الخير عام ١٢٠٦ (١٧٩١/١٠/٤) »؛ التازي (عبد الهادي)، **التاريخ الديبلوماسي للمغرب**، المجلد التاسع، ١٩٨٨، ص. ص. ١٢٢-١٢٦؛ ١٢٩؛ محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٦٥، ص. ن.

(١٢) مدح بوطوكي بن عثمان، وذكر خصاله الحميدة؛ كما مدحه المولى سليمان قائلاً: «أما بعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد بن عثمان، تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد رحمه الله صدقا وأمانة وعِرضا ومروءة، ولهذه الحالة المعروف بها عندنا، بعثناه لتطوان وولیناه أمرها وأمر من بها مفوضا له في ذلك، (...)»، انظر: داود (محمد)، **تاريخ**

تطوان، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ٣٨٤. وثلبه محمد داود ووصفه بطول اللسان...، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص. ٢٨٠: «فقيهان من تطوان في سفارة سلطانية عام ١١٩٦: ذكر ابن زيدان في تاريخه (ج ٣ ص. ٣٢٠) أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسل إلى جزيرة مالطة سفارة على رأسها كاتبه وسفيره السيد محمد بن عثمان، ومن رجالها السيد عبد الكريم بن قريش، (...). وهذه السفارة قد ألف فيها ابن عثمان المذكور، رحلة سماها "**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**" (...) ثم غادروا طنجة إلى قادس بإسبانيا في سابع ربيع النبوي عام ١١٩٦ (...). ويظهر أن ابن عثمان المذكور، كان طويل اللسان إذ أنه ذم رفقاءه ذما، وسبهم سبا، (...) ووصف ابن قريش التطواني بأنه عدو الكريم، الشقي الغدار، الخائن الختار، ومذي الصالحين والأخيار، إلخ».

(13) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 23-24.

(14) Ibid., p. 33.

(١٥) راجع على سبيل المثال:

Histoire du naufrage et de la captivité de M. de Brisson, Officier de l'Administration des Colonies... ; Genève, 1789 ; فالمغاربة حسب دو بريسون مجرد وحوش، منعدمو الكرامة والذكاء، يطغى عليهم العنف، ومتعطشون لسفك الدماء...؛ انظر: القدوري (عبد المجيد)، **سفراء مغاربة في أوربا** (١٦١٠-١٩٢٢)، الدار البيضاء ١٩٩٥، ص. ٢٢.

(١٦) انظر على سبيل المثال: **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ٣٠: « (...) فخرجت، فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن وتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، فأظهرن من الفرح والسرور والأدب ما قضينا منه العجب»؛ وص.١٦١: «ورقصن الضامات كما هي عوائدهم، فتجد الرجل جالسا وامرأته أو بنته ترقص مع أجنبي، ويناجي بعضهم بعضا خفاء ولا حياء، وكلام الناظرين يذهب جفاء ولا يبالي أحد بذلك مع ما هو معلوم فيهم وشائع في بلادهم من الفسق والزنى، ويعرف ذلك بعضهم في بعض، ومع ذلك فلا يبالون بشيء، فقد جبلوا على عدم الغيرة قبحهم الله وطهر منهم البلاد...».

(17) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 25.

(18) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 74 ; M. Arribas Palau, Una misión frustrada de Francesco Chiappe a España en 1791, Hespéris-Tamuda, vol. V, 1964, pp. 79-118 ; Idem, La estancia en España de Muhammad ibn Utman (1791-1792), Hespéris-Tamuda, vol. IV, 1963, pp. 119-192.

(19) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 19-20.

(٢٠) ربما كانت هذه الدار تقع في حومة سيدي مصباح التي كان أغلب سكانها من اليهود، ومعهم بعض النصارى، حسب: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٠٤: «حومة سيدي عبيس وسيدي مصباح: الخامسة: حومة سيدي عبيس وسيدي مصباح. وكانت مقسومة إلى قسمين: قسم خارج باب الرموز، أسفل السور، حيث ضريح سيدي عبيس. وكان مختصا باسم حومة سيدي عبيس. وقسم داخل السور، مطل على القسم الأول، كان مختصا باسم حومة سيدي مصباح، حيث ضريح الولي المذكور». ولما بلغ عبد القادر التبين الأندلسي تطوان، وجدها معمورة بالقرى من كل جهة، إلا الموضع المسمى بأنجريس (لعله الموضع المسمى إلى الآن بالمنجرة، بقعر الحافة). فصعد على حافة فوقه، فوجد الموضع في غاية الحسن، إذ كان يرى من الحافة الجهات الأربع. فضرب خِباءه فوق الحافة...، راجع: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ٥٣؛ ٦٥-٦٦. وفي حديثه عن ضريح سيدي سعود أسفل المصلى القديمة، فوق باب الرمّوز (...)، يقول الرهوني أنه كان يقع في بيت عال بدرجة، مكتنف بدور اليهود من كل جانب؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٦٨؛ فيحتمل أن يكون البيت الذي أقام فيه بوطوكي كان يقع في هذه الناحية: ما بين باب الرمّوز وأعلى الحافة التي ضرب التبين خباءه فوقها، والتي قد يكون سطح دار السرفاتي كان يشرف من أعلاها على "السهل والجبال والبحر".

(21) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 37-38.

(٢٢) عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان**، تقديم وتحقيق يوسف احنانة، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٥، ص.٤٥: «وكان الرجل الذي أنشأ بناءها رجلا حكيما، أعمل لها مواضع الحرث من وادي بوصفيحة إلى البحر، سقيا وبعلا. فالسقي منها كيتان، والمنافع، والمحنش، والدردارة، وأوهاّر وما والاها. والبعل دون ذلك. وعمل الأرحي بقربها، وداخلا فيها. وعمل الأجنات في الديور، إن بقيت على ذلك، لا تفتقر لأحد.»؛ وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص.٣١ .

(٢٣) انظر: الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، الطبعة ٢، ١٩٨٤، ص. ١٤٥: «تيطاوان: بقرب مليلة مدينة قديمة، كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيبة الهواء والماء...»؛ وكتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار**، (لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري)، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص. ١٣٧: «مدينة تيطوان: وهي مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيبة الهواء والماء...» ؛ ومحمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد ٢، ص. ١٦٣:« وصف الكاتب الإنجليزي [برايث وايت] لتطوان وأهلها : لقد وجدتها أفضل إلى أقصى الحدود من جميع المدن الأخرى التي شاهدناها في رحلتنا، ويؤيد فضلها هذا، جمال الأراضي المحيطة بها التي تعتبر أحسن الأراضي زراعة في بلاد المغرب* (١)، وبها تجارة شعب من أقوى الشعوب روحانية وأكثرها تمدنا في هذه الإمبراطورية بأجمعها»؛

* (١) ليكون قول هذا المؤلف مطابقا للواقع، يجب أن نحمل كلامه على ما يتعلق بزراعة البساتين والغراسي وما كان بها

في ذلك العهد من خضر وفواكه وثمار ورياحين وأزهار وأنوار، ...

BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ... Amsterdam, 1781, p. 155 :«Mais, avant de sortir de Tetuan, je donnerai une petite description de cette ville, que j'ai trouvé infiniment au-dessus de toutes celles que nous avons vues dans notre voyage, et cet avantage est soutenu par la perspective du Pays des environs le mieux cultivé de toute la Barbarie, et le commerce d'un Peuple le plus spirituel et le plus civilisé de tout cet Empire».

(24) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 19.

(٢٥) انظر: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج٣، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ص. ٢٦٧- ٢٦٨: «**الغرسة** بكسر الغين: البستان الذي يسقى. كما أن الجنان هو// البستان البعلي. هذا عرفنا في تطوان... وتجمع الغرسة على "غِرس"، بقياس»؛ ص. ١٠٥: «"**الجنان**": اسم لكل بستان بعلي لا يسقى. وأصله جمع جنة. ويُصغرونه على "جنيون"، بغير قياس؛ و ج ١، ص. ص. ٢٠٥-٢٠٦: «وأما خارجها [المدينة] فمشتمل على حقول ومزارع؛ تسمى في عرفهم فدادين، وعلى غروس وجنات. والعادة أن ما كان غير مزرب من الأراضي، يسمى باسم الفدان. وما كان مزربًا بزرب // من قصب، فإن كان سقويًا، سمي غرسة، بكسر الغين. وما كان بعليا، سمي جنانا. وهذا اللفظ في الأصل، جمع جنة. ثم صار يطلق على خصوص البستان البعلي...

ثم إن خارجها [المدينة] يقسم على أقسام وحومات، كداخلها. فخارج باب النوادر، كانت فيه غراس في حجر جبل أرسى. وفوقها جنانات في موضع يسمى (راس القراول).». ولقد استعمل الرهوني تصغير غرسة، وهو غُريسة: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٢٧- ٢٨؛ والجزء ٦، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٦، ص. ٢٥.

(٢٦) لوادي مرتيل عدة مخاضات (ج مخاضة) يسميها الأهالي "مجاز"، كانوا يستعملونها لعبور النهر، ذكر الرهوني منها: مجاز العطارة، ومجاز العدوة، ومجاز الحجر، ومجاز الزيتون، ومجاز الحمارة، ومجاز الشطبة؛ وغالب الظن أن بوطوكي ومرافقيه عبروا النهر إما عبر مجاز الزيتون الذي كان يستعمل للمرور إلى عدوة كيتان، أو مجاز الحجر؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ص. ٢١٠-٢١١؛ وج ٣ ص. ٣٩، ١٠٤؛ وج ٦، ص. ٢٣.

(٢٧) الزّرب: كل محيط ببستان، من قصب وغيره، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٩٠.

(٢٨) يسميها الأهالي في تطوان: العُلّيْقُ. انظر: **لسان العرب**، مادة: علق: والعُلّيْقُ: نبات معروف يتعلّق بالشجر ويَلْتَوي عليه. وقال أَبو حنيفة: العُلّيق شجر من شجر الشوك لا يعظم، وإِذا نَشِب فيه شيء لم يكد يتخلّص من كثرة شوكه، وشَوكُه حُجَز شداد، قال: ولذلك سمِّي عُلّيْقًا، قال: وزعموا أَنها الشجرة التي آنَسَ موسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فيها النارَ، وأَكثر منابتها الغِياضُ والأَشَبُ. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٢٧.

(29) BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ..., p. 82 :«[...] Ces dehors présentent une perspective des plus agréables, on ne voit que jardins le long de la rivière, où l'on arrive par plusieurs allées, que des espèces de palissades faites de roseaux rendent impénétrables aux rayons du Soleil».

(٣٠) راجع عادات التطاونيين في المصيف والخريف حسب **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٣٨: «من عاداتهم في المصيف، [وهي الفترة التي زار خلالها بوطوكي تطوان] أن جلهم يخرج لجنانه أو غرسته بعياله لشم الهواء الصافي، والتمتع بصحراء البادية، والتلذذ بغلة بستانه، مع أهله وجيرانه. فيبدؤون أولا بالمشمش، ثم بالباكور والتفاح والإجاص، ثم بالعنب والتين المنوع، والهندي والرمان»؛ و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢١١: «فأما العدوة الموالية لقنطرة أبي صفيحة، واستمرت إلى ما تحت مدشر بوسملال، فكلها مزارع لوادي راس وبني حزمر. وفيها أملاك كثيرة لسكان تطوان.

وأما ما تحت المدشر المذكور، فيسمى باسم العدوة. وفيه غراس كثيرة، بها لشين وتفاح وإجاص، وليمون وليم، وتين وغدان، وخوخ ورمان، وجوز وغير ذلك. وجلها ملك لأهل تطوان. ومنتهاها ما قابل مجاز الحجر، فإنه يسمى باسم مجاز الحجر. وقد اشتمل على غراس وجنانات لأهل البلد أيضًا»؛ عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان** ص. ١٣٤-١٣٥: «ومن عجيب أمرها أن الخريف لا ينقطع منها، ففي فصل الربيع تكون غلة اللشين، وتمتد إلى وقت العنب، وفي أوان المصيف، يكون بها خريف آخر من الباكور، والإجاص، والتفاح، وحب الملوك وغيرها من الفواكه. ويمتد ذلك مع غلة اللشين إلى وقت يطيب فيه العنب. ويتبعه أصناف ثمار الأشجار، ويبقى ذلك زمانًا طويلاً. وتتبعه غلة الجوز والرمان، وتمتد إلى أن يظهر خريف اللشين آخر»؛ وراجع وصف نزهة الأسبوع في الغرسة: داود (محمد)، **على رأس الأربعين**، ج ١، تقديم وتعليق حسناء داود، تطوان ٢٠٠١، ص. ٢١- ٢٥.

(31) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 38-40.

(٣٢) كانت لأشعاش عدة غِرس وجنانات ومتنزهات، ذكر الرهوني من بينها جنان العيّاط الذي كان يقع في دقم الجنانات بحومة الطوابل: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٠١. كما كان له متنزه في المرّة، وآخر بالمحنش، وآخر في المحل المسمى فم الجزيريّة، عند منتهى الطوابل، وغرسة في كيتان؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٧٦.

(٣٣) لعلها الغرسة التي كانت توجد في أبي قُدَيرة، وهو اسم قطعة من كيتان؛ كانت توجد بها غرسة راغون واللبادي حسب **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٤٠.

(٣٤) راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص. ص. ٢٦٧-٢٦٨: «السلطان يرسل الحاج عبد الكريم راغون التطواني سفيرا إلى تركيا عام ١١٨٠ (١٧٦٦/٨/١٤) »؛ داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثالث : ص. ١٠٣: «السفير الحاج عبد الكريم راغون: (...) وقد علمت من الفصل السابق أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسله سفيرا إلى سلطان تركيا (...) وقد علمنا أن سفارته إلى تركيا كانت في سنتي ١١٨٠ و ١١٨١، ولعل وفاته كانت في أواخر هذا القرن، والله أعلم» ؛ بل كانت بعد ١٠ ذو القعدة ١٢٠٥ (١٧٩١/٧/١١)، حسب شهادة بوطوكي. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٧٢؛ و**كشاف أسماء عائلات تطوان**، تطوان ١٩٩٩، رقم ٦٩٧، ص. ٧٣.

(٣٥) كان لغِرس تطوان رونق خاص نتيجة للمهارات التي طورها أصحابها الأندلسيي الأصل المتميزين بذوقهم الرفيع. ووصفها دو فوكو في ١٨٨٣ بأجمل بساتين العالم، انظر: FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 4 :«Dominée [Tétouan] au nord et au sud par de hautes montagnes, ayant à ses pieds les plus beaux jardins du monde, arrosée par mille sources, elle a l'aspect le plus riant qu'on puisse voir. [...] Les environs de la ville sont d'une grande fertilité ; les fruits de ses immenses jardins sont renommés dans tout le nord du Maroc : on les exporte à El Qçar et à Fâs... ».

ولقد دأب بعض سلاطين المغرب، كعبد الرحمن بن هشام، على طلب البستانيين (الرباعين) التطوانيين للإشراف على تهيئة بساتينهم وغرسها، في فاس ومراكش، وجلبوا من تطوان شتلات أشجار الفواكه، وبذور الخضر، بل حتى الفؤوس ؛ انظر : داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٨، ص. ١٠٧-١٠٨؛ ١١١: «... وبلغ الغرس بأنواعه غضًّا طريًا يانعا كما نحب...»؛ ص. ١٧١: «وبعد، فوجه الغرس في إبانه من ليم وإنجاص وغير ذلك...»؛ ص. ١٨٧- ١٨٨؛ ١٩٤؛ ٢٦٩؛ ٢٨٤؛ ٤٢٦؛ ٤٢٨؛ ص. ١١٢:«... وجّه لحضرتنا العالية بالله تعالى أربع مائة فأس من الفؤوس التي تخدمون بها جنتكم وعشر عتلات، ولا بد والسلام»، وص. ١٤٣؛ و**تاريخ تطوان**، المجلد التاسع، تطوان، منشورات الخزانة الداودية، ١٩٩٨، ص. ٤٤٣: "السلطان عبد الرحمن بن هشام يطلب من تطوان عارفا بتنظيم البساتين (١٢٦٦)"؛ ص. ٤٥٠: "مائة قضيب من الياسمين الدق من تطوان إلى فاس"...

(36) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 59-60.

قد يتعلق الأمر بالغرسة التي كانت معروفة بالسانية في كيتان، والتي كانت في ملك أحمد بن علي الريفي سابقا، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج٤، ص. ١٨٥: «(...) وتتابع انتصار التطوانيين عليه [الباشا أحمد الريفي]، حتى هدموا القصر الجميل الذي كان بناه الباشا أحمد بكيتان. (سانية السلطان)»؛ ج ٢، ٥٣. وكان John Windus قد وصفه كالتالي: «ويوم ١٧٢١/٥/١٥ تناولنا الغذاء ببستان الباشا، وهذا البستان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال، وكان حديث العهد بغراسته، وهو واقع في وادي جميل تحيط به جبال وتلال وأشجار وخضر، وله مناظر بديعة من جميع نواحيه، وتشقه ساقية ماء لا شك أنها كلفت خدمات كبيرة لجلب مائها من سفح الجبل، وكان غذاؤنا تحت شجرة خروب ذات ظل وافر. وعقب الغذاء وصل حاكم تطوان فتفسح معنا وقدم لنا أطيب الفواكه من برتقال وليمون ومشمش مذاقه لذيذ. وطرق البستان مفصولة عن غيرها بحواجز قصبية في غاية الإتقان، وفي الوسط عريش متقن تتوسطه خصة يجري بها ماء معين، (...). وهذا العريش تحيط به حديقة جميلة بها قرنفل كثير قد التف حول الحواجز والنوافذ، الأمر الذي جعل العريش ذا منظر جميل، وصير الجلوس به لذيذا ممتعا. وهذه الناحية يوجد بها أحسن أصناف البرتقال والليمون والزيتون والعنب والتين والبطيخ والرمان والمشمش "النيش"؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٠-٦١.

(37) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 67-69.

(٣٨) راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ٢٠٢-٢٠٣: «في أقسامها وحوماتها. كان داخلها مشتملا في القديم على خمسة أقسام وفروع، تسمى الحومات... وأكبر هذه الفروع، فرع البلد. وله أبواب ثلاثة: باب المقابر، والباب السفلي، ويسمى أيضا باب الجيف، لخروج الجيف منه... وباب السعيدة... وللفرع الثاني بابان: باب الرموز، وباب العقلة. وللفرع الثالث باب واحد، وهو باب التوت. وللرابع باب واحد، وهو باب النوادر. وقد سميت هذه الأبواب بعد الاحتلال بأسماء أخرى؛ فسميت باب النوادر، (لا بويرطا دي فاس)، أي باب فاس، وباب التوت، (لا بويرطا دي طنخير)، أي باب طنجة، وباب الرموز// (لا بويرطا دي المار)، أي باب البحر، وباب العقلة، (لا بويرطا دي الرينا)، أي باب الملكة، وباب السعيدة، (لا بويرطا د سعيدة)، وباب السفلي (...)، وباب المقابر، (لا بويرطا دي سبتة)، أي باب سبتة».

(٣٩) سيدي العربي الفاسي، **مرآة المحاسن**، طبعة فاس ١٣٢٤هـ: «إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة ابواب وسورها في عرضه سبعة أدرع ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر، وأعظمها حفير القصبة...».

(٤٠) مصطفى غطيس (ترجمة)، **تطوان، الحاضرة الأندلسية المغربية**، منشورات جمعية تطاون أسمير، طنجة، ٢٠٠٢، ص. ١٥؛ ٥٧.

(٤١) **نزهة الإخوان**، ص.١٢٠: «وحدثني شيخنا العالم العلامة سيدي عبد الرحمن الحايك، المتقدم الذكر أن علماء البلدة التطاونية كان لهم جمع في الجامع الأعظم، على من يكون قاضيا فخرج السهم عليه (سيدي عبد القادر بن مرزوق)، فلما أُفحم ولم يجد جوابا قال: انتظروني أن أدخل الميضات لقضاء حاجتي. وترك أمامهم السراويل والبرنس والرداء ونعليه، وخرج للميضات ومن ثم خرج على باب العقلة إحدى أبواب تطوان، وسار ذاهبا على حالته المذكورة وعلى قدميه إلى أن وصل بني هليل أحد مداشر القبيلة الزياتية من القبيلة الغمارية لأن بعض أناسه كان قاطنا بها، ...».

(42) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٤٣) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص٢٤٢: «ومن آثاره [محمد لوقش] بها قناتان للماء الجاري للعموم، إحداهما "قناة باب العقلة" والأخرى "قناة باب التوت" وهما صهريجان كبيران يجري بهما الماء الصافي الصالح للشرب في جميع فصول السنة، بل هما أكبر الصهاريج "السقايات" الموجودة من نوعهما بتطوان، (...). أما صهريج باب العقلة فهو واقع أمام الداخل إلى المدينة من الباب المذكور، وحوضه من الحجر، وله أنبوبان يجري بهما الماء إلى وقتنا هذا (١٩٤٩ م). ويستقي منه بعض سكان الحومة القريبة منه، وكثيرا ما تشرب من حوضه البهائم والبقر»؛ و**مختصر تاريخ تطوان**، ص. ١٠٢-١٠٣؛ ومصطفى غطيس، **تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية**، ص. ٤٧.

(44) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٤٥) راجع وصف John Windus لمساجد تطوان: « وطريقة بناء هذه المساجد غير منتظمة، وهي في الغالب محاطة بديار، ولا يسمحون للإنسان بدخولها إلا إذا كان منتميا إلى دينهم، والذي لاحظته عند مروري أمامها أنها مربعة الشكل، وأن سقفها منحني وأن بها سواري عديدة، وأنها مقسمة إلى عدة بلاطات سعة الواحد منها نحو أربع يردات، (...) : داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٧٤؛ وراجع تعريف "البلاط" في ج ٣ من **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ص. ص. ٨١-٨٢: «(...) وهو قطعة من الدار أو المسجد، المسقفة على حدتها. فيقال في المسجد الفلاني بلاط واحد، أو بلاطان. (...)»؛ وانظر: **رحلة سفارتين إسبانيتين إلى مراكش (ق ١٨ و ق ١٩)**، تعريب د. أحمد صابر، الرباط ٢٠٠٣، ص. ٢٣ : «وكان إذ ذاك بتطوان ثلاثة وعشرون مسجدا وسبع بيع يهودية وأيضا دار سكة...».

(46) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

تبدو تطوان من خلال وصف John Windus مدينة عامرة بالسكان، حيث يقول: «وسكان تطوان عديدون معافون، كما أن شروط الصحة متوفرة لديهم، فهم متمتعون بهواء جيد (...)؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٤؛ وص. ١٦٤، حيث يقول برايث وايت: «ويقدر عدد سكان تطوان بنحو ثلاثين ألفا بما فيهم اليهود، ويلوح للزائر أن هذا العدد فادح بالنسبة لصغر المدينة، رغم أنني قد خفضت كثيرا من الرقم الذي أرادوني أن أعتقده، لأنني لاحظت دائما أن المؤلفين الأقدمين والحديثين وجميع الذين عاشوا في هذه البلاد، يبالغون بإسراف في عدد السكان، وفي تقدير قوة ومقدرة هذه الإمبراطورية». ويقول الرهوني في هذا الصدد: «اعلم أن تقدير عدد السكان على التحقيق، كان قبل الاحتلال غير متيسر لأسباب. أما على التقريب، فكان عدد المسلمين يتراوح ما بين العشرين ألف نفس، إلى نحو الخمسة والعشرين ألفًا. وكان عدد اليهود يتراوح بين السبعة آلاف، إلى ثمانية آلاف»؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٥.

(47) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 77.

(48) Ibid., p. 82.

(49) Ibid., p. 18.

(50) Ibid., p. 27.

(٥١) هي التي يسميها بن عثمان بـ "شبابيك من القصب المسمى عندنا بالماموني"؛ والماموني في الأصل قبة وسط بستان تتخذ من قصب أو نحوه متشابك ثم صارت اللفظة تطلق على كل ستار من قصب أو خشب من هذا النوع في جوانب الممرات في الحدائق. ويظهر أن أصل الكلمة نسبة إلى المامون بن ذي النون صاحب طليطلة، وقد كان أنشأ قصرا فخما وجعل في وسط حدائقه بحيرة، وجعل وسطها قبة من زجاج ووصفها الأدباء وذكرها المؤرخون (انظر **نفح الطيب**، طبعة ليدن، ج ١، ص. ٣٤٧، وج ٢، ص. ٦٧٣): محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ١٧٩، والهامش ٢؛ و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٣٠.

(52) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 39-40.

(53) Ibid., p. 60.

(٥٤) وقد وصفه محمد بن عثمان بإسهاب، راجع: **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ٥٧-٦٢.

(55) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(56) Ibid., p. 40.

ذكر الرهوني في الجزء الأول من **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ص. ١٧٨، أن كثيرا من الأندلسيين «أتوا بمفاتيح أملاكهم التي كانت بالأندلس، تبركا بها وحفظا لآثارها، وانتظارا لأيام رجوعهم لأرضهم وأملاكهم، حين يفرحون بإخراج الكفار منها. وقد ذكر بعض رواة الخرافات الأروباوية أن عند أهل تطوان عددا من تلك المفاتيح. وهذا لا أصل له. بل هو كذب. نعم. رسوم الأملاك كانت لا زالت عندهم محفوظة. وقد بحث مؤرخ إنجليزي عن هذه المفاتيح، فلم يقف لها على أثر. وأخبره بعض أولاد الخطيب، أنه كان عندهم بعض رسوم من الأندلس، مع سيف أبي عبد الله ابن الأحمر الذي سلم غرناطة للإصبان، إلى أن نُهبت منهم في حرب عام ١٨٦٠ مسيحي، ١٢٧٦ هجري. أما الرسوم، فممكن وجودها عندهم. وأما السيف، فيبعد وجوده عندهم». تقدم إلينا الكاتبة الإنجليزية فرنسيس مكنب «ملاحظاتها عن مقامها في مدينة تطوان، وفي طليعة ذلك كراهية المغاربة الشديدة للإسبان، [...] وإنها ترجع إلى أيام طرد المغاربة من إسبانيا وقد غادروها وهم على يقين أنهم سيعودون إليها، إلى درجة أن كثيرا من سكان غرناطة صحبوا معهم مفاتيح منازلهم، ويقال أن عددا من هذه المفاتيح ظل يوجد في منازل بعض الأرستقرطيين من سكان المدينة إلى عهد الحرب المغربية الإسبانية، فلما احتلها الإسبان صادروا هذه المفاتيح (١٨٦٠)»؛ انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٩٠١)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ١٧.

(57) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 59.

(٥٨) راجع بخصوصه: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج٢، ص. ٦٥- ٦٧؛ ٦٩-٧٠؛ وج ٣، ص. ٥١-٥٨؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ص. ١٨٠-١٨١: «ولاية الحاج عبد الرحمن أشعاش على تطوان عام ١٢٠٤: كان

قائد تطوان، هو الحاج عبد الرحمن قردناش، وقد عزله المولى يزيد حين قدم على المدينة المذكورة عقب بيعته في شعبان عام ١٢٠٤، وذكر السكيرج [**نزهة الإخوان** ص. ٨٠] أن المولى اليزيد لما عزل القائد قردناش، ولى مكانه الحاج عبد الرحمن أشعاش، وأن هذا بقي حاكما بها إلى أن عزله السلطان مولاي سليمان، وسيأتي لنا أن عزله كان حوالي عام ١٢٠٦»؛ ص. ١٩١: «انتصار السلطان مولاي سليمان، وعزل أشعاش قائد تطوان : وتم الأمر للمولى سليمان لما عرف به من الجد والمروءة والدين، فبسط نفوذه على جل بلاد المغرب، ومن جملتها تطوان ونواحيها من الجهات التي كانت قد بايعت المولى مسلمة، وبإثر ذلك عزل السلطان المولى سليمان، قائد تطوان الجديد الذي ولاه المولى يزيد، وهو الحاج عبد الرحمان أشعاش، بالرغم من أنه لم يكن من مؤيدي خصمه المولى مسلمة، ولم يذكر المؤرخ السكيرج تاريخ ذلك العزل [**نزهة الإخوان** ص. ٨٢]، وإن كان من أهل تطوان وسكانها في ذلك العهد، والظاهر أنه كان عام ١٢٠٧هـ»؛ ص. ١٩٧: «ولاية الكاتب محمد بن عثمان على تطوان عام ١٢٠٧: ذكر أبو محمد السكيرج [**نزهة الإخوان** ص. ٨٢]، أن المولى سليمان لما تولى ملك المغرب، عزل قائد تطوان الحاج عبد الرحمان أشعاش، وولى بدله الفقيه الكاتب محمد بن عثمان، ولم يذكر تاريخ ذلك، وإنما اقتصر على أن ابن عثمان المذكور، أقام حاكما بتطوان نحو العام، والظاهر أن ولايته هذه كانت عام ١٢٠٧»؛ محمد ابن عزوز حكيم، **كشاف أسماء عائلات تطوان**، رقم ٩٨، ص. ٢٤.

(59) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 31 ; 36.

(٦٠) بعد تعريفه مصطلح "قائد" (le caïd)، كتب مييج (J.–L. Miège)، ص. ١٨٥، هامش ص. ١٩ أن الأمر يتعلق في هذا التاريخ (١٧٩١) «بعمر الريفي الذي توارثت عائلته منصب القائد». لكن الصحيح هو أن قائد تطوان في هذا العهد هو الحاج عبد الرحمن أشعاش الذي ولاه المولى اليزيد عام ١٢٠٤ ه / ١٧٩٠ م، بعد عزل الحاج عبد الرحمن قردناش. فهل خلط مييج (J.–L. Miège) بينه وبين القائد عمر بن حدو البطوئي [الريفي] الذي توفي من جراء وباء الطاعون في نوفمبر ١٦٨١ ؟ أم خلط بينه وبين القائد عمر ابن الباشا أحمد بن علي الريفي الذي لم يحكم تطوان؟ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ص. ١٨٤-١٨٥؛ وج ٢، ص. ٤٩-٥٠؛ و**مختصر تاريخ تطوان**، ص.١١٧؛ و**تاريخ الضعيف** (تاريخ الدولة السعيدة) لمحمد الضعيف الرباطي، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، الرباط، ١٩٨٦ ص.١٢٦؛ ومصطفى غطيس، **تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية**، ص. ٣٠. ولعل بوطوكي سمع أفراد الجيش يجيبون المنادي الذي ينادي بنصرة السلطان ثلاث مرات، فيجيبونه بالمثل، ثم بالبركة في عُمْرِ الباشا، فخلط والحال هذه بين عُمُر الباشا واسم عُمَر؟ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٧٧.

(61) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٦٢) لاحظ برايث وايت «شدة نظافة» الدار التي خصصت له ولمرافقيه؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢١. ويعبر أهالي المدينة عنما يسميه بوطوكي بحسن التنظيم والنظافة... التي تميز دورهم باستعمالهم مصطلحات التّاويل والتقعديد والتّقعديدة، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٠٠.

(63) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 27.

راجع وصف John Windus لديار تطوان الوارد في: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٣-٦٤: «ديار تطوان جميلة جدا ولكن شوارعها ضيقة جدا أيضا. وقلما ترى بتلك الدور نوافذ، وإنما ترى بها فتحات صغيرة، والنور ينفذ إليها بواسطة فناء بوسطها مربع الشكل مكشوف فيه أعمدة تحمل الأروقة بسقوف من خشب مطلية تحيط بداخل الدار، وهي تكاد تشبه ديارنا، وفي وسط الفناء توجد خصة إذا كانت الدار لشخص صاحب حيثية، والحجرات طويلة ضيقة وتوجد منها في العادة، أربعة في كل طبقة، وهذه الحجر تقابل الأروقة وأبوابها واسعة منها يدخل النور. وهذه الدور تكون بها في العادة طبقتان، ماعدا دار الباشا ودور أشخاص معدودين، والطبقة العليا مسطحة بحيث في بعض الجهات يمشي الإنسان بكل سهولة، ولكن الدور التي للتجار المسيحيين توجد بسطوحها شرفات».

(64) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 29.

(65) Ibid., p. 30.

(66) Ibid., pp. 33-37.

(67) Ibid., pp. 44- 47.

(68) Ibid., pp. 76-77.

(69) Ibid., pp. 79-80.

(٧٠) البروبي: اسم عائلة أندلسية. والكلمة إفرنجية، منسوبة إلى البروبنسية، أي العمالة أو الإيالة؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٦٧؛ و**كشاف أسماء عائلات تطوان**، رقم ٤٥١، ص. ٥٤.

(٧١) لم يكن محمد داود متأكدا من شغل البروبي لمنصب أمين ديوانة تطوان، إذ يقول بخصوصه "لعله كان أمينا بديوانة تطوان"؛ ونص بوطوكي هذا صريح ويؤكد أن البروبي كان فعلاً على رأس ديوانة المدينة في التاريخ المذكور؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ٢٣٦: «من المستندات الرسمية في عهد القائد أشعاش: وقفت على أوراق رسمية يرجع تاريخها لعهد ولاية الحاج عبد الرحمان أشعاش، ودونك بعض نماذج منها : فهذه شهادة للتاجر عبد الرحمن مدينة عام ١٢١٢ ونصها: الحمد لله وفي منتصف ذي الحجة الحرام عام اثني عشر ومائتين وألف، ورد التاجر الأبر السيد عبد الرحمن ابن المرحوم بكرم الله سبحانه الفقيه الأجل السيد الحاج علي مدينة الأندلسي التطاوني لدار الأعشار من محروسة تطوان بقصد السفر في البحر لبر النصارى لتجارة رائجة إن شاء الله، فأظهر لشهوده ما بصندوقه من المال، (...) فمن عاين ما ذكر لمن ذكر، قيده شاهدا به لسائل ذلك منه في تاريخه، ثم علامة (...)، ثم إمضاء عبد الرحمن بن علي قرضناش، ثم

عبد ربه محمد بن محمد البروبي لطف الله به آمين، (ولعل هذين كانا أمينين بديوانة تطوان)، ثم إمضاء عامل تطوان هكذا خديم المقام العالي بالله عبد الرحمان عشعاش لطف الله به آمين».

(72) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 21-22.

(73) Ibid., p. 27.

(74) Ibid., pp. 66-67.

(٧٥) نسبة إلى أكطيون (Actéon)، وهو شخص ميثولوجي مُسخ إلى أيّل قبل أن تفترسه كلابه، مجازاة له على استراق النظر إلى ديان (Diane) وهي تستحم.

(٧٦) وانظر ملاحظة دو فوكو بخصوص النساء السوافر في أرباض تطوان:

FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 3 :«Aujourd'hui comme hier, j'ai rencontré beaucoup de passants sur le chemin, surtout en plaine : c'étaient presque tous des piétons, paysans qui se rendaient aux champs ; peu étaient armés : il y avait un assez grand nombre de femmes ; la plupart ne se voilaient pas» ; p. 11 : « ... toutes laissent leur visage découvert... ».

(77) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 18-19.

(٧٨) أشار John Windus إلى عقاب الزنى قائلاً: «والزنى يعاقب عليه بالموت، وإذا اكتشف أن مسيحيا أو إسرائيليا له علاقة بامرأة مسلمة فإنه يلزم باعتناق الدين الإسلامي وإلا يحرق»، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٩. وعن ارتياد نسوة تطوان لأسطح دورهن، انظر:

BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ... pp. 93, 94-95.

(79) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 22- ٢٣.

(٨٠) كيتان: حومة غراس اللشين والتفاح وغيرهما، ما بين الحومة المعروفة بالمحنش، وبين الحومة المعروفة بالعِدوة. والكل عُدوة الوادي الفاصل بين تراب تطوان، وتراب بني حُزمر، لناحية الجبل. وتشمل عدة أقسام، مثل المنافع والجَنب والمُنية والمقاصب، وبو قديرة وتاغزوت، إلخ؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢١٦؛ وص. ٢٥٣: «**العِدوة**: مثلّثُ العين؛ وبالكسر ينطق أهل تطوان: كل ما كان مفصولاً بوادي أو بحر أو ساقية. ومنه حومة العِدوة؛ اسم لقطعة من غِراس اللشين والليمون وغيرهما، واقعة تحت مدشر أبو سملال الحزمرية». ولقد اشتهرت هذه الحومة بجمال غرسها وجنانها، وجودة فواكها؛ فهذا أديب تطوان وشاعرها محمد بن علي الرافعي يذكر احتفال أهل مصر بعيد الفطر، وما أكرموه به من الأطعمة وغيرها، وما شاهد من البساتين والرّياض. ومع ذلك، فضّل تطوانه وكيتانها على ذلك في قصيدة نظمها. راجع: أبو العباس أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، الجزء السابع، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٧، ص. ٨١.

(81) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

(٨٢) راجع وصف John Windus لنساء تطوان: «ولهن [نساء تطوان] عيون جميلة جدًا، ولبعضهن بشرة جميلة أيضًا. وقد سنحت لنا فرصة لرؤية بعضهن، لأنه يمكن أن يعيش الشخص في تطوان مدة سنة دون أن يرى وجه امرأة في الشارع، فإذا كن في الخلاء أو على السطوح (إذا لم يكن هناك رجل مسلم) فإنه يمكن أن يكشفن الحجاب عن وجوههن ويضحكن ويعطين أنفسهن شيئا من الحرية، حتى إذا ما بدا أي رجل فإنهن يعدن لتغطية وجوههن مرة أخرى. وجميع النساء يصبغن وجوههن بالطريقة التي بيناها سابقا في اجتماعاتهن العمومية، وهن جميلات لدرجة كبيرة، مربيات أحسن تربية يتصورها الإنسان، [...]: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٧-٦٩.

(٨٣) ورد نص هذا الحديث في **صحيح البخاري**، وغيره من كتب الحديث، وروي من طرق متعددة. ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء فقال: "يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من **ناقصات عقل ودين** أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. [...]"

(84) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 53-56.

(85) Ibid., pp. 66-67.

(86) Ibid., p. 20.

وهو الانطباع نفسه الذي خرج به John Windus بعد مقامه في تطوان: «لقد قضينا في هذه المدينة (تطوان) وقتا مملوءا بالسرور، نصطاد ونركب الخيل، ونتفسح في الحدائق، والناس يقابلوننا بغاية الأدب، (...)؛ راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٣؛ وص. ١٢٤، حيث يقول برايث وايت: «فإذا ما سرنا في المدينة أو في خارجها كانوا يفسحون لنا الطريق رغم أن جمهورا كبيرا كان ينتظرنا، ولم يكن أحد يضايقنا أو يحدق في وجوهنا... ».

(87) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

(٨٨) لعلها قبة أبي الحسن، سيدي علي مغيث بن الوفائي الحسني، المدعو الريفي، المدفون شماليّ مدشر كيتان، حيث المسجد والقبة المنسوبة إليه... راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٣٦: «[...] وأصل من بيني سعيد من الريف. والأصل الأصيل من الشرفاء الوفائيين الحسنيين المصريين. ومنهم الولي الصالح، سيدي علي الريفي، دفين مدشر كيتان، المتوفي عام ١٠٢٠، حسبما أخبرني بذلك بعضهم.»؛ و ج ٦، ص. ص. ٢٦-٢٨؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثالث: «ص. ١٥٧: [الشيخ محمد الزبادي الفاسي وذكر مجاذيب تطوان] وممَنْ لقيته أيضًا بتطوان، الشيخ سيدي علي الريفي المجذوب رحمه الله، لقيته قرب قبة شيخه المسمى عليه سيدي علي الريفي خارج المدينة في أعلى كيتان، وكان معي رفيق لي وذلك عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف، فزرناه وأمر صاحبا له

أن يزورنا سيده، (...) ». وانظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال**...، الذي زار هذا الضريح ثلاث مرات، ص. ٣٣؛ ٧٠؛ ١٠٣.

(89) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 71.

(٩٠) عن تفضيل سكان تطوان للإنجليز، راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٥٨: «ثم جاء قردناش وأعلم بأن الباشا (أحمد بن علي الريفي) يقترب، فخرج السفير (الإنجليزي) لاستقباله، فقابله الباشا بكل حفاوة ورحب به ترحيبا ودعاه لمصاحبته إلى مخيمه، وعند اجتماعهما، وعد الباشا بأنه سيعمل كل ما في وسعه لتسهيل الوسائل للسفير حتى يشعر في زيارته للمغرب باللذة والسرور، وصرح له بأنه يفضل الإنجليز على جميع الدول المسيحية، (...)»؛ وص. ١٢٣: قبول أمين ديوانة تطوان، محمد لوقش، لهدية السفير البريطاني المستر روسل، مردفًا «عبارات شكره بدلائل تؤكد ما يكنه للإنجليز من التقدير المنقطع النظير، (...)».

(91) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 37.

(٩٢) يعلق محمد داود في الهامش ١ على كلام John Windus بخصوص بغض أهل تطوان للمسيحيين قائلا: «الذي نعرفه، هو أن عقلاء أهل تطوان ما كانوا يبغضون المسيحية لذاتها، وإنما كانوا يبغضون أعداءهم المتعصبين من المسيحيين الذين أخرجوهم من وطنهم الأول (الأندلس) ثم صاروا باسم المسيحية والتعصب الأعمى لها، يحاربونهم في وطنهم الثاني (المغرب)، وكم أذاقهم أولئك المتعصبون من تقتيل وتعذيب بالحديد والنار، مما لا يترك في القلوب محلا لغير الحنق والبغضاء»؛ راجع: داود (محمد)، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٧٣.

(٩٣) يتعلق الأمر بنصراني ويهودي، فهما من أهل الكتاب الذين كان يُشترط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحق ومستحب. «وأما المستحب فستة أشياء: أحدهما تغيير هيآتهم بلُبس الغيار وشدّ الزُّنّار، والثاني ألاّ يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم، والثالث ألاّ يُسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عُزير والمسيح، والرابع ألاّ يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم، والخامس أن يُخفوا دفن موتاهم ولا يجهروا بندب عليهم ولا نياحة، والسادس أن يُمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهُجْنا، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير؛ [...]؛ انظر: النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، السّفر الثامن، القاهرة، بدون تاريخ، ص. ٢٣٨.

(٩٤) راجع بخصوصها: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٤١: «العنصرة هي يوم المهرجان الواقع في ٢٤ يونيو. ولا يقع عندنا فيه احتفال. إلا أن سكان الجبال ينزلون للبحر رجالاً ونساء بطبولهم وسلاحهم، فيلعبون البارود، ويسبحون في البحر على أصوات نسائهم التي يسمونها (أعيوع). ثم يرجعون»؛ ومصطفى غطيس، "عالم البحر في معتقدات سكان المغرب"، ٣- الطقوس المرتبطة بالبحر: العنصرة نموذجا، **المغرب والأندلس**، دراسات في التاريخ والأركيولوجية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ٢٠٠٦، ص. ص. ٢٣- ٢٦.

(95) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 38-39.

(٩٦) «عنصر الحوار من أهم العناصر التي يجب أن يزود بها الرحال عمله؛ ذلك أنه يتيح الفرصة للشخصيات لتظهر ظهورا حرا، فتعبر عن نفسها بنفسها، كما يؤكد على السمة الأدبية لكتب الرحلات. وكثيرون أولئك الذين يلجؤون لهذا العنصر مدركين أثره في إضفاء الحيوية والواقعية على كتبهم، ومدركين أنه فرصة لـ "أنا الآخر" كي يكشف عن ذاته، وأن تنوع الأسلوب يتفق وتنوع الحياة وتقلبها...»؛ انظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، **الرحلة في الأدب العربي**، ط. ١، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص. ٧٩.

(97) Ibid., pp. 43-44.

(98) Ibid., p. 67.

عن أوضاع يهود تطوان في القرن الثامن عشر، راجع رحلة برايث وايت: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢٣: « وقد ذهبنا بعد الظهر (١٧٢٧/٩/٢٢) لنشاهد بيع اليهود التي يبلغ عددها سبعة، وأما عدد اليهود المقيمين في تطوان، فهو خمسة آلاف تقريبا، موزعين على مائة وسبعين دارا يقيم في كل منها عدد من العائلات، وهم هنا أغنى من اليهود في أية ناحية أخرى من الإمبراطورية المغربية، ومع ذلك فهؤلاء البؤساء يعيشون في فقر مدقع لما يفرض عليهم من ضرائب مرهقة، وتمر جميع التجارة هنا بين أيديهم، لأنهم يقومون بدور السماسرة بين المسلمين والنصارى، وإذا لم يحترس كل من الجانبين المعنيين بالأمر، فإنه لا بد أن يكون دائما ضحية لجشع الوسطاء وتلاعبهم، وجميع اليهود هنا يتكلمون الإسبانية، وهو ما لا يفعلونه في باقي جهات المملكة»؛ وص. ١٥٨ من المرجع نفسه: «... إذ يجب أن نعرف أن المغاربة يبعثون في اليهود خوفا شديدا ويخضعونهم كالعبيد، حتى إن هؤلاء اليهود البؤساء يعاملون المغاربة – حتى شرار القوم – باحترام عظيم جدا، فلا ينادونهم بأسمائهم إلا مصحوبة بلقب السيد، ولا يظهرون لهم إلا معاملة الأتباع لأسيادهم، ومقابل ذلك لا يصلهم إلا أشد التحقير، ويوجه إليهم أقل المغاربة الأوامر بأشد الازدراء، فيقول يا يهودي افعل هذا، ويا يهودي اصنع ذاك».

BRAITHWAITE (John), op. cit., pp. 144-145 : «Car il faut savoir que les Mores tiennent les juifs dans une crainte servile et dans une soumission d'esclaves : aussi ces misérables juifs traitent ils les Mores, même de la plus vile populace, avec un respect des plus profonds, ne nommant jamais leur nom, qu'ils ne fassent suivre le terme de Monsieur, et des démonstrations de leur dépendance. Au lieu qu'ils ne reçoivent que des marques du dernier mépris, le plus abject des Mores prononce des ordres de la

manière la plus dédaigneuse, juif, dira-t-il, fais ceci, juif fais cela».

(٩٩) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٣٨؛ ١٩٩-٢٠١.

(100) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 19.

(١٠١) انظر: **صبح الأعشى** للقلقشندي، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ج ٢، ط ١، بيروت ١٩٨٧، ص.٤٧: "ما يعتنى بصيده من الوحش، والمشهور منه عشرون ضربا" ؛ وص. ٥٢ : «الثاني عشر "الخنزير" – وهو حرام بنص القرآن، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياسا على الكلب، بل قالوا : إنه أسوأ حالا منه لعدم حِلّ اقتنائه، إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد ». وعن اصطياد الخنزير في نواحي تطوان، راجع وصف John Windus الذي أورده داود (محمد)، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦١: «اصطياد الخنزير: ويوم ١٧٢١/٥/٢٠ خرجنا مع الباشا لاصطياد الخنازير الجبلية في الجبال الواقعة بين تطوان وسبتة، وقد قتلنا ستة خنازير كبيرة وأتينا بستة من أولادها الصغار حية، وأثناء الاصطياد، انكسر للباشا رمح عند اصطدامه بأحد الخنازير، وهذه الرماح التي يستعملونها في الصيد، مختلفة عن تلك الرماح التي كان الفرسان يتسابقون بها، إذ أن هذه يصنع نصفها من خشب متين ثقيل حتى لا تنكسر عند ضرب الخنزير بها». وعنما يسميه بـ "الغسل الديني"، ص. ٧٢، يقول: «والمسلمون كثيرا ما يغسلون رأسهم ويديهم ورجليهم حسبما يوجبه عليهم الدين، ويقومون بذلك قبل الصلوات (التي هي خمس مرات في كل يوم). لكن إذا أصابهم سوء الحظ ولمسوا خنزيرًا أو قاموا بعمل دنس جدًا أو تحدثوا مع زوجاتهم، يكونون ملومين بغسل جميع أجزاء الجسم (...)».

(102) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 45-46 ;

وانظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ص. ١٨٢-١٨٣: «[عامل طنجة: عبد المالك بن محمد (١٧٩٠/٥/٢٥)]. من عبد ربه سبحانه وخديم مولانا نصره الله، عبد المالك بن محمد لطف الله به، آمين، إلى صاحبنا طونيو سالمون قونصو الإصبنيول (...) ويوم الكتب سألني سيدنا عن خبركم وعن ورود الباشدور، فأجبته أن الباشدور في أقرب وقت يكون بالمغرب عند سيدنا بحول الله وقوته، وقد أمرني نكتب لك أمره الشريف ويعرفك فيه أنه خاطره معكم، وأمرني نوجه لك اسباع ونمر، توجه بهم للراي على يديك، (...) ويوم الخميس ١٢ رمضان (١٧٩٠/٥/٢٦) نوجه لك اسباع ونمر صحبة أصحابنا الواردين عليك، وفي صحبتهم كتاب سيدنا الشريف، (...)»؛ ص. ٢٩٥: «السلطان يرسل قائد تطوان سفيرا إلى فرنسا عام ١٢٦١: قال ابن زيدان (**الإتحاف**، ج ٥، ص. ٧٧): وفيها (يعني سنة ١٢٦١) وجه (يعني سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن) عامله على ثغر تطاوين سفيرا لفرنسا وفي معيته جماعة من أعيان الثغر المذكور، ووجه معه وحوشا وخيلا وطرفا، (...)».

(103) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 63.

(104) Ibid., p. 79 ;

و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٦: «الصيادة، وهي نوعان: صيادة الحيوان البري، من قلين وأرنب، وذيب وضربوب، وقنفذ وثعلب وحجل، وبقية الطيور. وذلك كله يصطاد بالبندق من الرصاص، وبالخشب على هيئة معلومة، وبالشبكات. وصيادة الحيوان البحري...».

(105) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 30- 33.

بلغ عدد إصطبلات تطوان نحو ثمانمائة، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ١٠؛ وج ٤، ص. ص. ٨٦-٨٧: «إن حومة السانية كانت تربط ٦٠٠ من الخيل. ويشهد لذلك رسالة اليوسي لمولاي إسماعيل، في الحض على عمارة الثغور»؛ راجع: فاطمة خليل القبلي، **رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي**، ج ١، الدار البيضاء ١٩٨١، ص. ٢٤٠: «[...] وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله تعالى، إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة. وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم، فخرجوا يسعون على أرجلهم، بأيديهم العِصيّ والمقاليع.»؛ وانظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٥٨: « الاحتفال بالسفير Charles Stewart :١٧٢١/٥/٦ وبين الساعة الثالثة والرابعة وصل الباشا [أحمد ابن علي بن عبد الله الريفي] من تطوان مصحوبا بنحو مائتين من الفرسان وثلاثمائة من المشاة، وقد حملوا بنادقهم وأخذوا يطلقون منها العيارات النارية، ثم اصطفوا على شكل نصف دائرة أمام خزائننا، وقام الباشا ورجاله بألعاب الفروسية، وهنا وصف المؤلف [John Windus] تلك الألعاب التي اشتهر بها المغربيون وامتازوا بها، ... »؛ وص. ٥٩؛ وراجع وصف برايث وايت لألعاب الفروسية على الطريقة المغربية، وركابات الخيل...: المرجع نفسه، ص. ص. ١١٧-١١٨؛ وراجع: **رحلة سفارتين إسبانيتين إلى مراكش**، ص. ٢١؛ وص. ٢٢: «مكثت السفارة في تطوان إلى غاية يوم ١٣ أبريل من نفس السنة [١٧٦٧]. وخلال هذه الفترة أقيمت في سوق المدينة عدة عروض الفروسية أبان فيها المغاربة عن مهارتهم التي يضرب بها المثل في الركوب وهم على صهوات خيول رشيقة.»

(106) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 67.

(107) Ibid., p. 31 ; J. Potocki, Manuscrit trouvé à Saragosse, op. cit., p. 232.

وكان آرثر ليرد بعد زيارته للمغرب سنة ١٨٧٢، قد أشار إلى أن المغاربة «يعرفون كرة القدم، وتتمثل في رفس الكرة دون هدف...»؛ انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٨٧٢)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ١٢٦.

(١٠٨) يستعمل بوطوكي مصطلح (capes) "برانس" الجبليين، وقد يكون المقصود هنا هو الجلاليب. وبالنسبة لفتيان الحاضرة يستعمل مصطلح "الحيّاك"، وجلي أن الأمر هنا يتعلق بالحايك الرجالي. ويعتبر نص السكيرج: **نزهة الإخوان**، ص. ٦٣، أقدم مصدر تطواني تحدث عن ألبسة رجال الحاضرة - وبعض ألوانها (الأخضر والأبيض) - بما فيها الحايك الذي كان يرتديه عمر لوقش يوم "عيطة السبت" (١٧٢٧/١٠/٧).

كما ذكر في هذا النص الطربوش، والقفطان، والتشامير، والقمجّة، والكسوة، والقشابة. وفي نص آخر: **نزهة الإخوان**، ص. ١٢٠، بخصوص عبد القادر بن مرزوق، ذكر السكيرج السراويل، والبرنس، والرداء، والنعلين. وفي حديث الرهوني عن محمد الحراق، قال إنه كان يلبس جُبّة الصوف، وحائك الصوف الخشن، ...؛ انظر: **عمدة الراوين**، ج ٤، ص. ١٧١. وانظر: محمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، ص. ١٥-٦٦: رسالة من عبد الرحمن بن هشام لأمينه عبد الرحمن أشعاش ورد فيها أمر بإكساء المساجين الذين في طنجة "حائكًا وتشامير كتان"،... وص. ١٤٥: «... وبعد، فنأمرك [عبد الرحمن بن هشام يأمر قائد تطوان محمد أشعاش ٤ شوال ١٢٤٣)] أن تدفع لأخ خديمنا القائد أحمد غداوش كسوة كتان، قشابة وتشامير وسروال كتان، وقفطان بيظراشة وحايكا، وسلهام ملف أزرق، ...»؛ و**تاريخ تطوان**، المجلد التاسع، ص. ٣٧٣: «[عبد الرحمن بن هشام] خديمنا الأرضى الحاج عبد القادر أشعاش، ... فيرد عليك حامله ... واجعل له كسوة جيدة مكمولة بسلهامها من الملف وقفطانها وحائكها، ... (١٦ ربيع الثاني ١٢٦٤)». وانظر: إدريس الجُعيدي السلوي، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، حققها وقدم لها عز المغرب معنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ٢٠٠٤، ص. ١٥٤: "«الخروج لملاقاة عظيم دولتهم" : ... وذلك بعد ما لبسنا الكساوي التي أنعم بها مولانا علينا أنعم الله عليه بخير الدارين، وتقبل عمله وبلغه قصده وأمله. وهي لكل واحد قفطان عجمي، وسروال وسلهام سكري من ملف البحر الكبير، وفرجية وقميص بالحرير وقلنسوة، وشقة حياتي، وحايك فاسي رفيع». وانظر: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣، ص. ١٢٠: «... وهذا السؤال من هذا الهندي [هل أنتم يهود؟ وقد طرحه على الحجوي وابنه لما رآهما يلبسان الزي المغربي] كان ونحن لابسون جلابة وشاشية وكسوة ملف، ولو كنا بالكساء والبرنوس والعمّة والفرجية والقفطان لكان أكثر». وراجع: أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٢: «وأصحاب هذه الحرفة [تدرازت (الحياكة)] يصنعون الجلاليب، جمع جلابة، بيضا وسودا وحُمرا، والقشاشيب، جمع قشابة، والفراشات التي يغطى بها عند النوم، والكرازي، أي حزم الرجال، وحزم نساء البوادي، والحياك، جمع حائك، أي محوك»؛ ص. ٢٤٥: «الثياب: الصنف الأول: ثياب الصوف البلدية، من جلاليب وقشاشيب، وفراريش وحيّاك، وسلاهيم وكرازي، وغير ذلك. وبائعو هذا الصنف يسمون بالبرغازين، جمع برغاز. مأخوذ من التبرغيز، وهو في عرف البربر، إبدال سلعة بأخرى. وهو ما يعبر عنه الفقهاء بالمعاملة. واسم هذه التجارة (تابرغازت)». وانظر وصف جون وندوس (John Windus) سنة ١٧٢٠ لملابس الرجال في تطوان: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٥-٦٦؛ و**على رأس الأربعين**، ج ١، تقديم وتعليق حسناء داود، تطوان ٢٠٠١، ص. ١٤٣: «رأيت مرة ابن خالي، وقد لبس جلابة صوف سوداء، وكانت العادة في ذلك العهد أن ذلك النوع من الثياب لا يلبسه إلا الفلاحون أو الجبليون، وكنت إذ ذاك طفلا دون العشرة، فطلبت من والدي أن يشتري لي مثل جلابة ابن خالي، فامتنع من ذلك وقال لي: «ذاك ثوب لم يلبسه أبوك ولا جدك». وبخصوص الحايك، راجع مادة "حائك" في قاموس:
DOZY (R.), Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam 1845, pp. 147-153.

وانظر وصف لباس قبيلتي بني حسان والأخماس في كتاب دو فوكو الذي يتحدث عن البرانس القصيرة التي كان يرتديها الفقراء من جبالة (ص. ١١)، ثم يصف بعد ذلك بتفصيل (ص. ٢٢-٢٣) لباس سكان الحواضر المغربية بفئاتها الاجتماعية المختلفة، الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء:
FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 11; 22-23.

(109) POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, op. cit., p. 32.

(110) Ibid., p. ٤٢.

(١١١) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ٢٤٤-٢٤٥: «التجارة: وأما تجارة هذه المدينة، فاعلم أنها مركز مهم للتجارة البرية والبحرية».

(١١٢) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٣: «الدباغة، ويقال لها أيضا (تادباغت). وهي عبارة عن دبغ النعال وجلود المعز، المسماة إن كانت بيضا بالزواني، أو حمرا بالوردي، وجلود الغنم المسماة البطانة، لأنه يبطن بها البلاغي».

(١١٣) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٠: «الدّلالة والسمسرة: وهي النداء على المبيعات من أصول وعروض وغيرهما، حتى تقف على آخر زائد فيها. وهي حرفة كثيرة، لا بأس بأهلها هنا. ويتعاطاها في الغالب أهل الطبقة السفلى».

(114) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 57.

(115) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 64-66 ;

وانظر: عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان**، ص. ٨٧: « ... فلما تولى بعد الحاج محمد مامي القائد عبد الكريم اللواجري، وأقام حاكما ما شاء الله، فولى بعده السلطان [سليمان] السيد محمد الجعيدي الفاسي. فأقام حاكما ما شاء الله ونزعه السلطان لتطلعه على فعله الدنيء السيء، قيل إنه كان يرسل لزناة أهل البلد وفسّادهم، فمنهم من يريد الوصول إليه ومنهم من يمتنع. وسبّه ونهره....»؛ و ص. ١٣٤: « ... والزنى فيها قليل. ولا ترى أحدا يلوط، ولا يفعل ذلك إلا من انتقل إليها طريا، وأما إذا طال يلزم الحكم المذكور». بيد أن صاحب "مخطوط مدريد" يؤكد وجود «الفاسدات من النساء» في المدينة قبل حرب تطوان، غادرنها قبيل دخول الإسبان إليها؛ انظر: محمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد ٥، تطوان ١٩١٥، ص. ٢٨٦.

(١١٦) انظر ما كتبه في هذا الصدد:
R. Caillois, Nouvelle préface du Manuscrit trouvé à Saragosse de J. Potocki, Gallimard, 1958, pp. 32-33 : « (…) Potocki n'a pas renié ses maîtres. Il est assurément Encyclopédiste, mais il est d'abord encyclopédique. Il donne sous une forme plaisante, imagée, volontiers ironique, la somme, non pas des connaissances de son temps, mais des siennes propres, qui sont exceptionnellement étendues, et qui, dans le // domaine de ses études personnelles, devancent celles de ses contemporains les plus informés.
(…) L'auteur a beaucoup lu. Il a beaucoup voyagé. Il est perspicace et observateur…
(…) Potocki était un homme entreprenant, ardent, impétueux, avide d'expérience et de savoir. »
(117) POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, op. cit., p. 21.
(118) Ibid., p. 42.
(119) Ibid., p. 46.
(120) Ibid., p. 46.
(121) Ibid., p. 61.
(122) Ibid., p. 62
(123) Ibid., p. 65.
(124) Ibid., p. 65.
(125) Ibid., p. 80.
(١٢٦) عن اهتمام الفرنسيين بكتب المسلمين وبحثهم عنها، بما فيها هذا الكتاب، انظر على سبيل المثال: إدريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق زكي مبارك، طنجة ١٩٨٩، ص. ٤١: «… ولهم [الفرنسيون في مرسيليا] تشوق لأخبار النواحي ومعرفة أحوال البلاد وأنواع التجارة والفلاحة والعمارة، وقد أكثروا السؤال عن العلوم والكتب وسؤالهم عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم واللغات أي لغة كانت، وعن كتب التاريخ والسير والحكم والأدب وكتب الحكايات، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتبا عديدة من كتب الإسلام باللغة الفرنصاوية مثل كتاب آداب الكتاب [=**أدب الكاتب**] لابن قتيبة و**كتاب الأمثال** للسمعاني و**القاموس**، وكتاب **ألف ليلة وليلة**. ويشترون من كتب المسلمين الكتب الرفيعة ويتغالون في ثمنها ويشترطون جودة الخط وصحة الضبط…». ويبدو من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري أن سوق الكتاب في تطوان كانت تعرف رواجًا في منتصف القرن الثامن عشر؛ فلقد اقتنى صاحب الرحلة مجموعة من الكتب المختلفة مواضيعها، وقد ذكر عناوينها وأثمان بعضها، كـ**مقامات** الحريري، و**كتاب الشفا** للقاضي عياض، و**شمائل** الترمذي وشرحها لابن مخلص، و**مفيد الحكام** لابن هشام، و**مختصر** القزويني، و**الدواني**، و**مضحكات** ابن عاصم، و"ميارة على **لامية الزقاق**"؛ انظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال**…، ص. ٧١؛ ١٠٧؛ ١١٠-١١١.
(١٢٧) يطلق الطالب، حسب الرهوني، على معنيين: على حافظ القرآن الكريم، وعلى طالب المعروف بالأبواب؛ وحسب السياق، فالطالب هنا يحمل المعنى الأول؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٠٨؛ وانظر على سبيل المثال ج ٤، ص. ٢٠٠: «الطالب السيد محمد بن عبد العزيز الفَقّاي التطواني».
(١٢٨) راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٨: «التّدرير: أي تعليم الذراري القرآن العزيز، وحروف الهجاء، وكيفية الرسم والضبط والتجويد. ويسمى ذلك في القديم التأديب. والقائم بهذه الحرفة بعض أهل البلد.
التدريس: ومنها تدريس العلوم. وهي حرفة العلماء. والقائمون بها لا يبلغون الثلاثين في كل عصر. وقد يقلون إلى ثلاثة في بعض الأوقات… وانظر: العلوم التي تُقرأ في تطوان، ص. ص. ٢٣٩-٢٤١.
(١٢٩) القرن الثالث ق. م. رياضي يوناني علّم في الإسكندرية. وضع مبادئ الهندسة المسطحة. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٠: «الطّبجية، أي حرفة الرمي بالمدافع. (…) وهذه الحرفة على قلة أهلها هنا، الذين كانوا لا يزيدون على المائة، كانت حرفة شريفة معتبرة؛ يحترف بها أهل الطبقة العليا، ويتنافسون فيها، ويتدارسون كتبها على الطّرز القديم، بادئين بالقلصادي في الحساب».
(١٣٠) أقدم كتاب في الفلك، ألفه بطليمس (١٤٨)، وعربه حُنين بن إسحق.
(١٣١) كلوديوس بطليمس: فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠ – ١٦٨). نشأ في الإسكندرية. له "المجسطي" و"جغرافية بطليمس".
(132) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 60-62.
(133) Ibid., p. 60.
(١٣٤) لعله "التّريس"، لأن التريسيو (Tresillo) لم يظهر في إسبانيا إلا في القرن XIX. ويحدثنا الرهوني في ج ٦ من **عمدة الراوين**، ص. ٦١، عن صاحب "**نزهة الإخوان**": عبد السلام السكيرج الذي كان مولعا بلعب "الكرطة"، ونظم لخلانه الذين كان من بينهم عبد الكريم الخطيب، قصيدة في بيان أسماء أوراقها، وكيفية لعبها…؛ وانظر: عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان**، ص. ١١-١٢. وكان صاحب **تاريخ تطوان** محمد داود أيضًا مولعا بلعب الورق، راجع: حسناء محمد داود، **على رأس الثمانين**، الجزء المكمل لمذكرات الأستاذ محمد داود "على رأس الأربعين"، تطوان ٢٠١١، ص. ٣١٠.
(135) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 69.
(١٣٦) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢١٣: «عادتهم في الجدري والحصبة».
(١٣٧) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ٢٣٤: «الطّبّ: ومنها الطبابة، أي مداواة المرضى. وهذه الحرفة على الطراز

الجديد الناشئ عن علوم الطب العصرية، مفقودة في هذه المدينة، عند المسلمين والإسرائليين. وإنما يتعاطاها المسيحيون. وأما على الطّرز القديم، من الإشارة على المريض باستعمال دواء بسيط أو مركب من العقاقير والأدوية المعروفة، فهنا عدد من المسلمين يتعاطونه مجّانا. وأفضلهم وأكملهم، وأصوبهم وأعلمهم بالصناعة، الشريف البركة، الولي الصالح، سيدي محمد ابن سيدي الحسني البقالي، حفظه الله. فإنه في إشاراته وإرشاداته الطبية، فاق كل من يزاول هذه الصناعة من جميع الأديان، لأنه باشر ذلك بإذن خاص من شيخه، القطب مولاي عبد السلام ابن سيدي علي الريسوني. رضي الله عن الجميع، فأعطاه الله مهارة عظيمة في فهم كتب الصناعة، كـ "**قانون**" ابن سينا، و"**تذكرة**" الشيخ داوود الأنطاكي وغيرهما، فهما صحيحا دقيقا يعجز عنه أكابر المتخرجين من المدارس العصرية. وبخصوص محمد بن الحسني البقالي وشغفه بمطالعة "قانون" ابن سيناء، و"تذكرة" داوود بن الأنطاكي وغيرهما، ومهارته في الطب والتشريح...، راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٦، ص. ٢٠١-٢٠٥؛ داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، ص. ١٨٦: رسالة من السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى محمد أشعاش بخصوص ابن عم السلطان الذي قصد تطوان لأجل العلاج: «... فانزله عندك وكلّف الطبيب بمعالجته حتى يعافيه الله، ...».

(١٣٨) يرى برايث وايت أن تقديم الهدايا في المغرب «عادة واجبة الاتباع، ولا يستطيع المغاربة أنفسهم أن يخرقوها، تلك هي أن يحمل الزائر معه هدية للشخص الذي يزوره، تكون دليل اعتبار وتقدير، ويكون لهذه الضريبة أثر كبير في تسهيل المقابلة وفي حسن الاستقبال، وتتكون هدية المستر روسل [للباشا عبد الملك بوشفرة] من أربع قطع من الجوخ، وقطعة من نسيج حريري مشجر، ورطلين من الشاي، وأربعة أقراص كبيرة من السكر، وساعة فضية»؛ راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢٢.

(139) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 58- 59.

(١٤٠) لم يكن لسبتة باشا، وإنما يتعلق الأمر بقائد محلة المجاهدين المحاصرين للثغر المحتل.

(141) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. ٧٢- 73.

(142) Ibid., p. 23.

(143) Ibid., p. 69.

(١٤٤) راجع الفصل الرابع عشر في أخلاق أهل تطوان: أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٤٥-٢٤٨: «أعلم أن أخلاق جل أهل هذه المدينة، أخلاق شريفة، كما يعلم ذلك من مارسهم... ومنها الكرم... والعفة... والتواضع...وعزة النفس... والشجاعة... والأدب ورقة الحاشية واللطافة...».

(145) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 68.

(146) Ibid., p. 75.